رواية

عالم المندل

أحمد عبد اللطيف

دار العين للنشر

عالم المندل

رواية

أحمد عبد اللطيف

دار العين للنشر

إلى
سارة
قلب العالم

" لم يتعد الأمر الأحلام بالطبع. فكيف يمكن لامرأة عاقلة التخلي عن زواج سعيد؟ مع ذلك فإن صوتًا بعيدًا جدًا ومغريًا بات يعكّر سلامها العائلي: إنه صوت الوحدة. أغمضت عينيها وسمعت من بعيد، في أعماق الغابات، صوت بوق صيد. ثمة دروب ممتدة في هذه الغابات، وفي أحدها يقف أبوها. كان يبتسم لها ويناديها ".

ميلان كونديرا - الخلود

1

رأيت في المنام أن لي عضوًا ذكريًا، فانتفضتُ من حلمي صارخة وأهلوس بكلمات وعبارات لا أذكرها، وربما لم يسمعها أحد. هي المرة الأولى التي أرى فيها حلمًا شبيهًا رغم أني أحلم وأتذكر مناماتي بشكل شبه مستمر.

كنتُ عارية تمامًا أمام مرآتي أتأمل وجهي بكثير من التفحص بحثًا عن بثور لم أعثر عليها، وعن هالات سوداء تقتل بريق عينيّ على الدوام، فتمنحني سنوات عمر لم أصل إليها بعد. حينها كانت عيناي تقولان شيئًا لم ألتقطه في حلمي، رغم تركيزي فيهما أكثر من المعتاد، ومرَّرت يدي اليمنى فوق حاجبيّ وقررتُ أنهما في حاجة إلى تزجيج، وخطر ببالي وقتها أن أنتف شعر وجهي لأول مرة في حياتي، ولأواظب على ذلك

دومًا إن منحني شيئًا من الجمال، أما أنفي فليس له حل سوى عملية تجميل لن أخضع لها أبدًا مهما كانت الظروف، فلا ثقة لي في الأطباء ولو كنت أتمتع بقليل من الثقة فيهم لأجريت عملية ضرورية في ظهري. قُلتُ ذلك وأنا أتحسس أنفي بيد واليد الأخرى تتجوّل بجسدي وتقبض على نهدَي وتمر بخصري متجهةً نحو ما بين فخذيّ فأجد شيئًا صلبًا لا يجب أن يكون هناك، فأنا امرأة ودومًا كنتُ امرأة، فأتردد قليلًا قبل أن أنظر إليه وأفضّل بعد ثوان أن أراه أولًا في المرآة، فربما إن قالت الصدق فاحتمالية الكذب كبيرة، وإن قالت الكذب فلا داعي للانشغال؟ رأيت في المرآة عضوًا ذكريًا منتصبًا بين يدي فنظرتُ إليه في الحقيقة مصدومة ومشدوهة ومذهولة ومصعوقة، وأطلقت صرخة مستيقظةً من نومي مرددة عبارات، أغلب الظن لا معنى لها.

حدث كل ذلك أمام مرآة الحمام التي عادة ما أستخدمها لأتعرف بنفسي على عيوب جسمي فأحاول مداراتها قدر الإمكان، بينما كانت الأصوات من الخارج تأتيني متقاطعة، أصوات نساء عالية وصاخبة لا يتوقفن لحظة عن الكلام كما لو كن في مبارزة بالألسن (أكبر آفات النساء وأنا منهن اعتبار الصمت نقيصة) كان يعلو فوق صوتهن بالإضافة لصوت الكاسيت، إطلاق زغرودة كل دقيقة تقريبًا تعلن عن مجيء امرأة جديدة تنضم إلى الجلسة بعد أن تبارك وتقبّل الجالسات، لم يكن كل ذلك يهمني في شيء (أنا أكذب، كان يهمني بالطبع وبشكل لا يعرفه إلا من أقبلتْ على الثالثة والثلاثين بلا زواج بلا خطبة بلا متوددين في وسط مدينة ليس لها سوى عينين تنظران ولسان كما السوط) كل ذلك كان

يبهجني، نعم يعطيني شعورًا بالانتصار وبالسخرية من تلك النسوة اللاتي جئن الآن ليباركن، وبالأمس كانت كلماتهن تقطّعني كما السكين وكل ذلك كان يتزامن مع وقوفي أمام مرآتي دون تناقض. كثير من العوالم كانت تتشكّل في ذهني وأنا نائمة، ومع كل زغرودة كنت أتخيل المرأة القادمة، ملبسها ومشيتها ونظرتها وطريقة نطقها بكلمة مبروك، وجلستها والبدء بامتداح أخلاقي والتباري في رفع صوتها لأسمعها دون أن تعرف أنني في الحمّام، وكنتُ أبتسم ساخرة وأنا مشغولة في أشيائي الخاصة. وفجأة انقطعت جميع الأصوات، واختفى الضجيج ليحل الصمت محله، وكان صمتًا يشبه المقابر غير المسكونة في ليلة شتوية كثيرة الرياح، لذا كان صمتًا مليئًا بالشوائب والصفير.

بعدها سادت ظلمة أو ربما أصابني العمى إلا على رؤية قضيب يطل من بين يدي وأنا عاجزة تمامًا عن التخلي عنه، عن رميه أو عن تحسسه، فصرختُ بكل قوتي دون أن يسمعني أحد وكان لون الحمّام أبيض مع أنه في الواقع بني فاتح، ويتخلل بلاطاته بلاط بمبي والحوض يصل حتى خصري بالكاد على عكس الواقع، حيث يتخطاه ليقف ما بين البطن والصدر تقريبًا، أما المرآة فكانت أكبر حجمًا بشكل ملحوظ وأنا؟ كيف كنتُ؟ أظنني طويلة وبيضاء لهذا انتبهتُ بشدة لهالات عينيّ السوداء وللشعر المتناثر في بشرتي، لكن حركاتي كانت بطيئة أو أن الزمن داخل الحلم كان يختلف مقياسه عن الزمن الواقعي، فيدي كانت تستمر مثلًا فوق حاجبيّ تتحسسهما لعدة دقائق، وتفعل نفس الشيء مع أنفي بينما كانت عيناي تدققان في بقية وجهي زمنًا مبالغًا فيه، لدرجة أنني شعرتُ داخل الحلم

أنني ربما أقضي ليلة زفافي أمام المرآة. سمعتهن ذات مرة يقولون إن الزمن في الحلم مهما طال ليس إلا دقائق معدودات. لا أؤمن بكل ما يقال فلو نقلنا الحلم إلى الواقع لاستغرق ساعات.

الشيء الوحيد الذي كان يحدث في الحلم مطابقًا للواقع، هو ما كان يجري خارج الحمّام، أقصد دخول الزائرات أو المدعوات، فما بين تحسس وجهي بأصابعي واتخاذي قرار نتف الشعر، سمعتُ أكثر من عشرين زغرودة وكان الضجيج يتضاعف بشكل ربما يثير الاضطراب (حتى لا أكذب مرة أخرى وأقول الغضب) يمكنني أن أقول أيضًا: إن الزمن توقف بمجرد لمسي لعضوي الذكري، ولم يتحرّك إلا مع صرختي التي اصطحبتْ يقظتي والتي لم يسمعها أحد، وتبعتها عبارات لا أتذكرها فجلستُ على سريري واضعةً وجهي بين كفيّ أراجع تفاصيل الحلم بقلب مقبوض، لا لأنه أكثر الكوابيس التي طوّقتْ رقبتي بحبل حريري، بل لأنني بكل بساطة أعرف تفسيره عن يقين، فكل الكوابيس التي غزت مناماتي من قبل كانت لا تخرج عن كونها قطة سوداء أو ثعبانًا، أو شخصًا ما يطاردني بوجه مخيف، وحكايات أمي وأنا صغيرة عن أكلة لحوم البشر التي كانت تتجسد في مناماتي، لكن هذا الحلم ليس كابوسًا بل علامة من العلامات التي أؤمن بها، كما أن كوابيسي في نهاية الأمر يمكن عدها على أصابع اليدين بينما أحلامي تلك التي يمكن تفسيرها، والتي تتضمن علامات لا يمكن تجاهلها كانت كثيرة حد الغزارة، لدرجة كنت معها أحيا حياة كاملة قبل أن تتحقق، فالعضو الذكرى في حالتي هذه معناه أنني لن أنجب ولدًا وما سيحدث بكل بساطة أن لقب عانس الذي أحمله على كاهلي منذ

سنوات، سيصير أم البنات وربما بعد سنوات قليلة يتوقف عددها على مدى تسامح زوجي وفهمه لطبيعة الحياة سأكون المطلّقة. حينها انتبهتُ لضجيج الصالة الذي يقتحم غرفتي بقسوة وعرفتُ لماذا لم يسمع أحد صرخاتي المتتالية وعباراتي التي لا أتذكّر منها شيئًا، صوت الكاسيت بأغانيه الرديئة التي صُنعت فقط من أجل الرقص، وثرثرة النسوة اللاتي يرسمن البسمة على شفاههن بينما يحتفظن بالحقد داخل صدورهن، والزغاريد التي تخرج من أفواه جافة كانت بالأمس تجرح إنسانيتي، وفي الغد ستواصل عملها بلا رحمة، كل ذلك لم يكن من عناصر الحلم إذن، لذا كان يطابق زمنه الواقعي، واقع يقتحم خصوصية منامي فيضعني في حيرة من أمري فيتسرّب الصداع إلى رأسي، وبينما أرُجّه لتتساقط أفكاري تقع عيناي على ساعة الحائط: السابعة وخمس دقائق. فألعن نوم المغربية الذي إن طال أو قصر يتركني بصداع مزمن (صداع، ضجيج أغانٍ هابطة، نسوة ثرثارات، مَنْ فرض عليّ هذه الحياة؟).

هاجمني وسواس لم أستطع مقاومة غوايته فرفعتُ عني غطائي برعب ورجفة، وبينما أدخل يدي من تحت البنطلون ببطء بقلب يقفز من فمي من فرط نبضاته مخافة أن أجد عضوًا ذكريًا، دخلتْ أمي فجأة وضبطتني في هذا الوضع فصفقتْ الباب سريعًا وأنا نزعتُ يدي من مخبئها بسرعة أكبر مثل لص، فاقتربتْ مني وأنا أرتجف وقالت عبارات كثيرة وكلمات لا حصر لها لا يخرج معناها عن شكر الله أنني وجدتُ من يسترني قبل أن أتسبب لعائلتي الكريمة في فضيحة، وكيف وصلت بي الحال إلى ممارسة عادة سرية بغيضة وأنا من كانوا يثقون في قدسيتي، ويأتون في زيارتي

لتفسير أحلامهم. هي لم تتوقف عن الحديث بينما أنا أردد عبارتي الوحيدة كأنها تعويذة أطرد بها الأرواح الشريرة التي حلت بجسدها: رأيت في المنام أن لي عضوًا ذكريًا وصرختُ صرخات لم يسمعها أحد ونطقتُ بعبارات لا أتذكّرها.

* * *

كان من الممكن أن يمر الحلم بسلام ولا يأخذني معه في متاهاته ويصدمني في كل لحظة في حائط يقسم رأسي نصفين، وكان يجب أن يمر كأحلام أخرى لم أعرها اهتمامًا رغم يقيني بأنها ستتحقق. لكن شيئًا ما ربما موعده قبل زفافي بليلة، وربما خوفي الحقيقي والمستمر من الفشل في الزواج، فيُضاف ذلك إلى عدد لا متناه من الإخفاقات في حياتي، جعلني أسترجع المنام بتفاصيله الصغيرة في محاولة لم تتوقف لحفظه والبحث بداخلي عن تفسير له يغاير التفسير الذي شعرت به مع أول لحظة من يقظتي.

حدث ذلك مصحوبًا بشعور من الانقباض، شعرتُ به من قبل مئات المرات، لكنه هذه المرة بلا بلسم يخفف حدته، ففي أحلامي السابقة التي تحققت أو التي أنا في انتظار تحقيقها كنتُ أجد أمامي وقتًا يهبني طاقة من القوة أواجه بها أعظم شرور العالم بظهر منتصب، والآن لم يكن أمامي سوى خوض التجربة وانتظار ما أعلم يقينًا أنه سيحدث، غير أنني هذه المرة مع علمي بإتاحة الوقت الكافي لشحن طاقتي، أجدني مكسورة ولا تغيب عن ذهني صورتي وأنا أنصت لطبيب يخبرني بعد عمل سونار أن الجنين أنثى، حينها أتصور زوجي بوجه يكسوه الحزن ويتخذ موقفًا من

اثنين إما محاولة الابتسام لمداراة حزنه، وهذا أمل ضعيف وغالبًا ما يحمل نية غدر بزواجه من أخرى، وإما أنه سيطلقني صراحة بلا لف أو دوران، وقد يكون نبيلًا فيفترض أن الولادة الثانية ستكون ذكرًا، لكن أمله سيخيب لا محالة وربما يكون أكثر نبلًا فينتظر المولود الثالث الذي لا ريب أنه أنثى ثالثة، وفي كل الأحوال والظروف أراني عائدة إلى بيت أبي بأطفال ليس لهم ذنب في الحياة سوى أنهم إناث، أحمل لقب مطلقة.

أشعر بالإرهاق يسير في جسدي، ونغزات الألم تنتقل من مكان إلى آخر مثل طفل شقي لم يعرف الرصانة بعد، فأسترخي على سريري من جديد وأفكر، لن تشفع لي سمعتي بأنني مفسرة أحلام المدينة رددتُ بصوت مسموع لكن من ينصت لي؟ لم تشفع لي حتى الآن فلم أسلم من الألسنة التي هربت إلى أذنيّ كلمتها البغيضة: عانس، و لم أواجه إحداهن من قبل فقط كنتُ أسمع مثلما كنتُ أفعل طيلة حياتي.

قضيتُ نصف عمري المفترض في وضع المستمع، حتى عندما كنتُ أتكلم فقط من أجل تفسير أحلام لم يُغيّر القدر أيضًا كنتُ أسمع (أسمع أستمع أنصت أصغي أفتح أذني كلها، مترادفات لفعل واحد أشكال مختلفة لنفس الفعل، ثراء لغوي لإعطاء حياة لقاموس بشر، موتى يتحركون كما الأشباح ويبتسمون كما الأصنام ويتحدثون كما يليق بامرأة لا يشغل بالها سوى ما يفعله الآخرون) أنا أيضًا ميتة لأنني لا أعرف كلمة لا، مجرد كلمة تتكون من حرفين عجزت طيلة حياتي عن نطقها، كلمة لو تحرّك بها لساني لصرتُ أخرى فلربما امتلكت شيئًا، وربما حققتُ حلمًا وربما

كنتُ الآن في مكان آخر مسترخية فوق سرير آخر، أرتدي ملابس أخرى وأفكّر في رجل آخر يسمعني، كلمات لا تشبه كلمات أمي، رجل حتمًا لن يظن أنني أمارس العادة السرية في وجوده، رجل حقيقي يقبل امرأة رأت في منامها أن لها عضوًا ذكريًا فيعانقها في حب ويعدها أن يسمي بناتها باسمها ومشتقاته، ويخبرها في همس أنه يحب الإناث لأنهن مخلوقات رقيقة، وأن بنات امرأة تشبهها سيكنّ ملكات. لا يزال ضجيج الكاسيت يقتحم غرفتي وتتابع الزغاريد لا يتوقف، وعقارب الساعة لا تسير بحركتها الطبيعية وكأنها تتآمر عليّ من أجل الانتهاء من هذه الليلة لتضعني بلا إرادة مني في يوم زفافي.

أفتح باب شرفتي فتهاجمني برودة الطقس. أسحب معطفًا من دولابي وأعود إليها من جديد فأنتبه أن البرودة رغم كل شيء تنبع من داخلي، ربما من خواء تركته روحي التي لم تعُد بعد من رحلتها السماوية. خواء أشعر به يزداد ويستدير ليمنحني برودة ممتزجة برجفات لا يمكن السيطرة عليها. برودة داخلية تنصهر في برودة خارجية فتصنع مني تمثالًا لامرأة مهزومة، فأطل على شوارع مدينتي الصغيرة المغمورة الآن بالمطر الذي تتساقط زخّاته على وجوه العابرين المتسابقين في خطاهم، قاطعين الطرق الملطخة بالطين في محاولة للاحتماء تحت الشرفات، والصورة الطبيعية التي أراها الآن أمام عينيّ وأنا أرتجف هي أفضل صورة من الممكن أن تعبّر عني، هي إحدى العلامات التي دومًا آمنتُ بها (زخات المطر هي أحلامي: غزيرة وصائبة) كل قطرة مطر تعرف الوجه الذي تصيبه فتتجه إليه كما السهم، بعضها يصيب العين الأنف الخد الشعر، وبعضها الآخر الأكثر

رحمة يهاجم الجسد المتدثر بمعطف، حتى القطرات التي تستقر على الأرض تعرف وجهتها فتقوم بمهمتها الأبدية في خلق الوحل وتكوينه، تصنع عائقًا أمام السائرين في أمان، وقطرات أخرى تستقر في النهر فتزيده ماءً أو تطعم الزرع فتزيده بريقًا (أنا مثل العابرين أتلقّى حباته في صمت برضا أو بصبر، لكن في كل الأحوال لا يمكنني تجنبها) الجبناء وحدهم أو العاجزون هم من يختبئون تحت الشرفات أو تحت الأشجار لكنهم سريعًا ما سينتبهون أنهم اختاروا لأنفسهم مصيرًا أشد سوءًا، ففي الحالة الأولى أصابهم مطر نقي وأبيض، بينما في الحالة الثانية ستختلط حبات المطر القليلة الهاربة بغبار أوراق الشجر المتكدسة أو حوائط البيوت أو أفاريز الشرفات فتصيبهم حبات ملوثة وسوداء ستلطخ وجوههم وملابسهم.

أبتسم أمام الصبية الذين يعبرون الطريق أمام السيارات المتباطئة في سيرها، يتقافزون في مرح وينشدون بأغانٍ مصحوبة بضحكات عالية، بينما تنزلق قطرات المطر مثل حبات اللؤلؤ كي تصطف فوق زجاج السيارات متسابقة في الوصول لأسفل، تطاردها المسّاحات في حركة منتظمة ذهابًا وإيابًا لتحقق نظافة مزعومة، ولا تخلو الصورة من عشاق بأياد متشابكة يستمتعون بكرم السماء ورائحة الطين.

توقف المطر وانتبهتُ لصوت أمي تخبرني أن الزائرات رحلن وهي ممتنة تمامًا لمجيئهن في هذا اليوم المغيّم، فلا أخبرها أنا عن حسرتي لغياب صديقاتي وأكتفي بأن أتذكر أن كلهن متزوجات.

* * *

يرن هاتفي المحمول بصخب بأغنية اختارها هو، ويتحتم عليّ أن أسمعها كلما أراد أن يحدثني، فأمسك التليفون وأنظر إليه في صمت وتظهر على الشاشة كلمة "حبيبي" أبتسم بمرارة فهو أيضًا من اسمّى نفسه حبيبي وسجّل رقمه بهذا الاسم، وأفكر في أن أخبره أنني رأيتُ في المنام أن لي عضوًا ذكريًا، سيسألني بلا ريب عن تفسير ذلك، سأصب التفسير في أذنه متخيلةً انطباعات القلق على وجهه لكنني سأنتظر رد فعله دون أن أتوقع فلم أتعرف إليه جيدًا حتى أتوقع ردود أفعاله.

تنتهي الرنات لتعاود صخبها من جديد، فأفكر في أن أسأله للمرة المائة عن سر اختياره لي كزوجة، لعل الإجابة تختلف في هذه الليلة فربما يقول بكل بساطة: إنني المرأة الوحيدة التي يأتمنها على اسمه ليس لأنني قديسة بل لأنني قبيحة وقبيحة حد أنني لو تعريتُ أمام الرجال ما أثرت فيهم، حتى رغبة الملامسة سيكون حواره كالعادة عن طيبتي، لكنه لن يتجرأ ليقول إنني جميلة ولن يلامس جزئي الأنثوي في شيء، ولن يطيعه لسانه لو أراد أن يتكلم عن شفتين مرسومتين وملوّنتين، أو عن شعر ناعم وغجري أو عن عينين تأسران القلوب من نظراتها الأولى، ولن يتجرأ لأن كل هذا على عكس الواقع تمامًا، وكان هذا يا للعجب شرطه في زوجة المستقبل: أن تكون قبيحة وامرأة فقط من أجل الإنجاب تصلح أمًا لعدد من الأطفال تكرّس لهم وله كل ما تبقى من عمرها، دون أن يكون لها أي طموح في الحياة سوى الوصول لنهاية اليوم لتنام مستريحة الضمير، لأنها أدت ما عليها بكل تفانٍ (الحياة من أجل الآخرين) مقولة آمنتُ بها طيلة حياتي لأجد نفسي علَى عتبات الثالثة والثلاثين دون أن أحمل ذكرى

خاصة بي فكل سنوات عمري أهديتها بسذاجة لآخرين لم يدركوا يومًا أنني إنسانة، فأهديت سنوات طفولتي لأمي ومراهقتي لصديقاتي، والآن يجب أن أعيش من أجل آخر كل ما يبغيه مني، أن أنجب له آخرين يحملون اسمه وأرعاهم أنا دون أن يحملوا اسمي في بطاقات هويتهم.

وفجأة أنتبه أن هاتفي المحمول قد كف عن ضجيجه فتغزوني فكرة أن أهاتفه أنا وألومه أنه اتصل في وقت غير مناسب، وأخبره أنني كنت أمارس عادتي السرية في استرخاء عندما جاءني اتصاله ليشتت تركيزي، ولابد أنه سيغضب ويسألني من علّمني هذه العادة، ومنذ متى أمارسها، وسيظن أنني امرأة منحرفة لا أسيطر على رغباتي، وحتمًا سيجد نفسه في مواجهة سذاجته التي صوّرت له أن كل امرأة قبيحة عفيفة بالطبع وكل امرأة جميلة منحرفة بالضرورة، فأهدم له الأساس الذي شيّد عليه اختياره لي وأناقشه في معنى الانحراف والعفة، ولن ينصت لي فقط سيظل يكرر أسئلته الحمقاء عن كم رجلاً عرفته في حياتي، وإلى أي مدى وصلت العلاقة بيننا، ولن يدخل معي في أي حوار مبني على المنطق والواقع، ووقتها سأفضل الصمت فيطلب بإلحاح أن أحكي له حكايتي من البداية، لذلك لن أهاتفه ولأكف عن جنوني ولأتذكر أن زفافي غدًا، وأنني يجب أن أسير في طريق الخضوع الذي اخترته لنفسي منذ البدء.

2

أجلس على سريري وأنظر حولي. غرفتي ممتلئة بدباديب وأرانب وعرائس لم يهدها لي عاشق ذات يوم، وعلى الحائط تابلوه لحصان أسود، جامح، ينظر لي بتحد، ربما تبعث لي نظرته رسالة لم أستقبلها بعد، وربما لن أستقبلها أبدًا. بجانبِ الدولاب أربع حقائب كبيرة الحجم، تضم إحداها قمصان النوم والسوتيانات والكيلوتات التي سأبدأ في ارتدائها غدًا من أجل رجل لا أعرفه، رجل لن يرى فيّ أي ملمح من الجمال، وحتمًا لن يهتم بما سأرتديه.

غدًا، في ساعة مثل هذه، سأفتح ساقيّ مثل أية عاهرة أمام رجل لم يلمس قلبي، ولا يود ذلك. سيقترب مني بابتسامة باهتة، صفراء، ليدخل قضيبه في مخبئي ليفض بكارتي، دون أن يقبّلني. أتذكر الآن مقولة قرأتها عن

التقبيل والجنس، بوسعنا أن نمارس الجنس مع أي كان، لكن ليس بوسعنا أن نقبّل سوى من نحب. ستسيل دماء بكارتي فيشعر بنشوة الرجولة وأشعر بمرارة الهزيمة. بقية الحقائب تضم ملابس جديدة وقديمة، وأشيائي الخاصة. الهجرة من جديد، من مكان لم أختره إلى مكان لم أختره، من امرأة أقنعتني أنني قبيحة فأرادتْ دومًا التخلص مني، إلى رجل يخاف أن يدان كما أدان، فاختارني، قبيحة بلا ماض.

* * *

الحقائب المرصوصة تذكّرني باليوم البعيد الذي دخل فيه أبي البيت ليبشرنا بالهجرة. كان يوم سبت، وكانت الثامنة مساءً وكنتُ في السادسة من عمري. عندما زف لنا الخبر نظرتُ في ساعة الحائط لأحفظ الموعد بالضبط. لم أصادف في حياتي يومًا أسعد من هذا اليوم. و لم يكن مبعث السعادة سوى الرحيل عن هذه القرية التي ولدتُ فيها، لكنني لم أكن قد رأيتها حتى يوم الرحيل منها. رغم ذلك عرفت عنها الكثير.

هناك عاش أبواي قبل مجيئي لهذا العالم، فولدتُ في صمت وفي صمت استخرجوا شهادة ميلادي، وفي نفس الصمت احتفل أبواي بطقس السبوع، وللحفاظ على إيقاع الصمت أصرّت أمي على عدم ذبح العقيقة التي أراد بها أبي أن يفديني، وصاحبني هذا الصمت الدائم الذي لم يكن يقطعه سوى صوت أمي خلال ست سنوات. ست سنوات لم أر فيها مخلوقًا سوى أبواي و لم أسمع سوى صوتيهما (أحيانًا كان أبي

يتحدث). كنا نشبه الثالوث الذي لا يزيد ولا ينقص، وربما تعمدت أمي ألا تنجب سواي وربما أنجبتني بلا رغبة منها.

حكت لي أمي، ربما منذ لحظات ميلادي الأولى، عن أكلة لحوم البشر في القرية، وبعدها تعددت حكاياتها وتكررتْ. كان أبي يقضي نهاره بالعمل ويقضي ليله نائمًا فلم تجد هي أمامها سواي لتردد على مسامعي حكاياتها. روت لي كل ما ورثته عن أبويها وأجدادها من حكايات وأساطير، فأورثته لي. سردت كل ما سمعته منذ ميلادها حتى ميلادي فكانت حكاياتها بلا نهاية.

لكنها لم تقض يومها فقط في الحكي، وإنما أيضًا في الشكوى من أبي فكل ما كانت تود أن تقوله لأمها البعيدة المستريحة في العالم الآخر عن قسوة أبي وهجره الدائم لها، كانت تردده على مسامعي أنا، فأصبحت أنا بفضل هذه الحكايات طليقة اللسان ابنة الخامسة كنت أتحدث كابنة العاشرة وأكبر. وفي السادسة أصبحتُ صورة طبق الأصل من أمي ليس فقط في ملامحها وإنما أيضًا في طريقة حديثها وإيماءاتها وشكل جلستها فوق الأريكة الخشبية المتواضعة، أو جلستها التقليدية على الأرض لتقميع البامية أو خرط الملوخية أو لف المحشي، وجلستها فوق كرسي الحمام الصغير لغسل الأواني، وفوق الكنبة لتلعب معي الكوتشينة في نهار تطول ساعاته يوما بعد يوم، حتى في نظراتها ونومها على جانبها الأيمن مائلة قليلًا على بطنها، وفي شعورها بالمرارة والعزلة. كنت أحرك يدي في حركات انفعالية متناغمة مع نبرة صوتي، وأكرر مقاطع ولزمات تخص

لغة أمي. شابهتها حد أنها لاحظت في هذه الفترة أن كفوف أيدينا صورة طبق الأصل، الخطوط المتقطعة التي لا تتلاقى حتى المنتهى. متأخرًا انتبه أبي لهذه المخلوقة التي تشكّلت وربما أدخلت لقلبه السرور. انتبه عندما باغتني وأنا جالسة فوق الأريكة أخيّط الثوب، وأتحدث مع أمي بنفس لهجتها وصرامتها. لكنه انتبه فقط للشبه الخارجي ولم يدر بخلده أن ما يدور بنفس وذهن هذه المخلوقة الصغيرة أكبر بكثير مما يمكن أن يتوقع. مرارة ورعب وعزلة لا يعرف معناها الأطفال في عمرها. ولم يكن بالطبع يعرف شيئًا عن الحكايات. حتى الكوابيس التي كانت تهاجمني في منامي وتفزعني لم تحركه من نومه العميق، ولم تهز مشاعره في يقظته عندما كانت تخبره بها عند تناوله إفطاره قبل الذهاب لعمله.

كان يستمع لقلقها في صمت سرمدي وهو ينهض من نومه بصعوبة، وهو يمضغ الطعام، وهو يضع أصابعه في طبقه، وهو يشرب الشاي، وهو يدخن سيجارة ما بعد الإفطار، وهو يرتدي ملابسه التي تدل على وظيفته، وهو ينتعل حذاءه، وهو خارج من الشقة الصغيرة التي نعيش بها بلا جيران. لا تصمت أمي إلا عندما يودعها بتحية الوداع فتعود إلى صالتنا الصغيرة وتدور في ذهنها أفكار وقرارات لم تتخذها طيلة حياتها. وفي طريقها لغرفة النوم حيث أنام بجوارهما، تهمهم بكلمات لا أفهمها جيدا لكنها ربما نفس ما كانت تردده بعد ذلك على سمعي طول النهار والليل أيضًا. تجدني مستيقظة. تسألني منذ متى وأجيبها منذ بدأت وصلة كل يوم، تتهمني بطولة اللسان وتسألني إن كنت أريد تناول إفطاري وأجيبها بأنني أريد أن أنام لكنني أخاف الكوابيس فتضمني بين ذراعيها

وتلعن هذا البيت الذي تسكنه العفاريت، وتقرأ تعاويذها فأتصنّع النوم حتى يأتيني وأستيقظ بعد ذلك لأجدها تقوم بتنظيف البيت كعادة يومية لم تتخل عنها أبدًا. تأمرني أن أساعدها وعندما ننتهي تقوم بتسخين ما تبقي من طبق أبي بينما أضع المائدة، وحين نشرع في الطعام تطلب مني أن أروي لها ما رأيت في منامي. أتقمّص دورها ونبرتها وأحكي. "كان في مرة واحدة ست جت من بعيد ومعاها ابنها الصغير على دراعها، راحت عند حماتها تسأل عن جوزها اللي ساب لها البيت من تلات أسابيع وما رجعش. كانت حماتها عايشة في بيت فقير زي كل بيوت البلد، وكان معاها جوزها وتلات ولاد أصغرهم عنده أربع سنين.

حماتها حطت لها الأكل واتكلمت معاها كويس، وقعدوا يضحكوا شوية ويسكتوا شوية لحد الليل ما جه وبقت الدنيا عتمة، فقالت صاحبة البيت لمراة ابنها: "نامي جنبي إنتي وابنك وأنا وجوزي والعيال هيناموا برة في الطرقة".

نامت الست وراحت في النوم، وفجأة صحيت مفزوعة بتدوّر على ابنها ما لقتهوش جنبها، اتجننت وصوّتت لحد ما صحّت أهل البيت، سألتهم ابنها فين لحد صوتها ما راح، وفي الآخر قعدت على الأرض وشقت هدومها. قرّب منها ولد صغير وسألها ببراءة: "بتعيّطي ليه" فقالت له: "خطفوا ابني وأنا نايمة" فالولد قال لها: "لأ، ابنك هنا" وشاور لها على الفرن. الست بصّت بفزع وسألته: " فين؟" راح الولد ساحبها من إيدها ووداها لحد الفرن وقال لها: "حسيت إني جعان رحت كلته ورميت راسه هنا". فقعدت الست على الأرض تلطم وتصوّت وتبص جوة الفرن، وفي

الآخر دخَّلت إيديها وسحبت راس ابنها بشعره الأسود لحد ما أغمى عليها.. رحت صحيت وأنا شايفة راس الطفل في إيد أمه".

كانت أمي تنصت لي وقد كفت عن الطعام. دي الحكاية اللي حكيتها لك إمبارح، قالت. آه، وهي اللي شفتها في الحلم. ومنذ ذلك اليوم رأيت هذا الكابوس أكثر من ألف مرة، كلما أثاره شيء. يومها نهضت أمي وأخبرتني أن عفاريت البيت هم من يضايقونني. فسألتها عن العفاريت من هم. أرواح الموتى، أجابتني. اللي بياكلوا الأشرار؟ فردت بالإيجاب وأضافت: وغيرهم.

لكن هذه الكوابيس التي أرعبتني دائمًا لم تمنع أمي عن حكاياتها، وأحيانًا كانت تتوقف عندما تنتبه للرعب الذي يقفز من عينيّ، لكن الفراغ الذي كانت تشعر به كان أقوى ربما من الخوف الذي يحيط بي.

لم تمر أيام بعدها حتى سمعنا صوت امرأة تصرخ في الشارع بكلام لم أفهمه، وحينها حكت لي أمي أن سيدة طرقت باب بيت المرأة ففتح لها رجل ما إن رأته حتى قفزت على رقبته مصت دمه وأكلته ورحلتْ، وعندما عادت زوجته من السوق ووجدت رأسه وبقاياه، أصابها الجنون وصارت تتجول شوارع القرية تنادي على من أكل زوجها.

أثناء كل هذا الرعب الذي يحيط بي فيلفني، دخل أبي البيت منهكًا ليزف إلينا الخبر السعيد بأننا غدًا سنرحل إلى مدينة جدي. حمدتُ الله في سري لأننا سنترك هذه القرية، وعبّرتْ أمي عن فرحتها بإطلاق زغرودة كتمها أبي بكف يده اليمنى حتى لا يطلّع أحد على سرنا.

في الصباح خرجنا من البيت وتركنا به الأثاث القليل المتواضع. حمل أبي حقيبة احتوت ملابسنا جميعًا، أما أمي ففضلت ألا تحمل شيئًا معها يذكّرها بهذه الأيام التي قضتها هناك، في سجن، كما كانت تردد دائمًا. حينما وطأت قدماي الشارع شعرت بنفس الخوف الذي امتلكني عندما رأيت رأس الطفل في الحلم، وكانت وجوه البشر مخيفة رغم أنها لا تختلف كثيرًا عن وجهي أبوي. أمسكت بقبضة أمي بشدة بكلتا يدي، فأحكمت قبضتها وهي تشير لي إلى كلاب القرية وقططها التي كانت تملأ الشارع، وعندما وصلنا محطة القطار وركبنا بدأت أتأمل الوجوه، وفي تصوري أن أحدًا قد ينقض عليَّ أو على أمي ويأكلنا.

ربي، ما كل هذا الخوف. غلبني النعاس ساعتها فألقيت برأسي على صدرها وكنت أستيقظ كل خمس دقائق فتربت أمي على كتفي لأنام، وفي المرة العاشرة تقريبًا اندهش أبي من فزعي فردت أمي بأنني ملبوسة من هذا البيت الملعون المسكون بالعفاريت. لم يرد لكنني تخيلته غير مبالٍ.

بعد قليل رفعتُ رأسي وسألت أمي عن معنى ملبوسة. يعني فيه عفريت ساكن في جسمك، أجابت بتلقائية. والعفريت دا شكله إيه يا ماما؟ سألتها بفضول.

فأجابتني بتلقائية: بأنه مخلوق له وجه طويل وعين واحدة وأظافر طويلة ينهش بها أجساد البشر. اللي بياكلوا لحم بعض؟ سألتُ. فتدخل أبي قبل أن تجيبني ولامها على ما تحكيه لي فالتزمتُ الصمت مثلها، وعندما نمتُ أطل عليّ أحد العفاريت بوجهه الطويل وعينه المفردة وأظافره الطويلة

وبدأ ينهش في جسدي. استيقظت مفزوعة صارخة وخاصمني النوم حتى وصلنا لمدينة جدّي، ومنها لبيته. أحيانًا كثيرة كنت أتخيل أن جدي سيأكلنا، وأحيانًا أخرى كنت أتخيل أنني أنا التي سآكله.

* * *

مع بداية بلوغي بدأت كوابيسي في التلاشي، لكنها لم تختف للأبد وحلت محلها أحلام لها تفسير، ومع الوقت انتبهتُ أن أحلامي تتحقق وأنني أمتلك القدرة على تفسيرها عند يقظتي، فمجرد أن أفتح عينيّ يتجسد أمامي المنام وأدرك تفسيره. كنتُ أحكي لأمي كل شيء فأدركت هي الأخرى أنني إنسانة خاصة، فاستمرت في سرد مناماتها لي لأخبرها بالتفسير، وسريعًا ما ذاع صيتي بين الجيران، فأصبحوا بلا توقف يزوروننا بأحلامهم، حتى أطلقوا عليّ اسم "مفسرة أحلام المدينة".

3

دقات الساعة تشير للواحدة بعد منتصف الليل. بعد تسع ساعات سأبدأ رحلتي في جسدي لنتف الشعر، وعمل الماسكات. وبعد عشرين ساعة سأكون جالسة على الكوشة بجانب رجل صار زوجي. لا أعتقد أن الأرق سيخاصمني هذه الليلة، فمع تقدم الساعة أشعر بالرعب يزداد بداخلي، ومن آن لآخر تهاجمني رجفة ترجّني.

أحاول الهروب من أسئلة تخص الحلم حتى لا أرتبك أكثر، فطيلة حياتي أؤمن بالمحسوس، بالميتافيزيقي، أتخيل الطبيعة دومًا كإنسان، تتكوّن من جسد هو الأنهار والأشجار والبحار والجبال، ومن روح مختبئة تحرك كل هذا وتعطي له جاذبية، ومن هنا تأتي جاذبية الأمكنة. لكل مكان روحه الخاصة به، لهذا نتعلق بأماكن ولا نتعلق بأخرى. لهذا أثق في روحي التي تغيب عني في المنامات لتسبر أعماق الغيب فتأتيني بما لست أعلم، كما

أن الحلم هو وسيلتي لفهم الحياة، ففيه تظهر الأشياء، على عكس المتوقع، واضحة ولامعة. لكن همي لا يكمن فقط في تحقيقه، بل في الحياة التي تُفرض عليّ دون إرادة مني، وفي شعوري الدائم أن أحدًا يراني.

* * *

في فترات مراهقتي، كنتُ دومًا الطرف الثالث في علاقات العشق. كنت أقل صديقاتي جمالًا، لذلك كنت صديقة لهن. في الثامنة مساءً، كانت إحداهن تهاتفني لتمر ببيتي في اليوم التالي ونذهب إلى المدرسة معًا. وبمجرد أن أضع السماعة أجد أخرى تطلب مني مرافقتها، وعندما أعتذر، تلح في أن ترافقني أثناء العودة، فأوافق. وقبل أن تمر دقائق، تهاتفني ثالثة لتتفق معي على الخروج معها بعد المغرب، وهكذا الرابعة والخامسة، حتى يصبح يومي مشغولًا بصحبتهن، فأضطر في النهاية لتقسيم أيام أسبوعي بينهن.

كنتُ، وما زلتُ، أتمتع بميزة كبرى، أنني قبيحة. نعم قبيحة الشكل. لي أنف عريض وأفطس، فم تبرز منه سنتان تصلحان كسلاح، حاجبان عريضان لا أهتم بتزجيجهما، وبشرة خمرية منطفئة؛ أما عيناي، رغم اتساعهما، تغلفهما هالات سوداء يختفي وراءها أي أثر لجمال سابق. ولأنني أؤمن بقبحي منذ مولدي، فأمي، رغم أني ابنتها الوحيدة ورغم أني أشبهها، كانت تعايرني، لذا لم أكن أهتم بهندامي، ولا إخفاء قبحي بأي نوع من المساحيق، وكنتُ، ومازلتُ، رغم ما أفعله من جهد، أسير مثل العسكري، بظهر منتصب وخُطى واسعة. الميزة في كل ذلك أنني كنتُ محلًا لثقة الجميع، فأبواي يعلمان عن يقين أن للرجال عيونًا لا ترتاح

إلا في وجه جميل، ولا تمتد أياديهم إلا إلى جسد يثير رغباتهم (الدنيئة بلا شك في عُرف الناس رغم سعيهم إليها). وفوق ذلك، كان أهل زميلاتي، أو صديقاتي، يرونني نموذجًا في الأخلاق، وحسن التربية، ويأتمنون على بناتهم معي، أكثر من وجودهن، أو خروجهن بمفردهن. فكان يكفي أن تقول إحداهن إنها ستخرج معي، ليكون ذلك كلمة سر يُفتح بها أكثر العقول تزمُّتًا.

كان هذا أحد الأسباب الواضحة لصداقتهن لي، أما السبب الخفي فلا تعرفه سوى أنثى، مثلي، وقبيحة مثلي كذلك. فصديقاتي، على الأقل صديقاتي حتى لا أظلم بقية بنات جنسي، لا يصادقن من هن في نفس جمالهن أو أكثر جمالًا، ووراء ذلك يكمن السبب الخبيث. بجوار فتاة في قبحي تجذب هي انتباه الرجال، وتسمع منهم كلمات الإطراء، ويقتربون منها ليهمسوا في أذنها بكلمات الإعجاب، التي حلمتُ طيلة حياتي أن أسمع ولو كلمة واحدة منها. بجواري، لابد أن يظهر جمالهن، فيقترب منهن الرجال لطلب أيديهن، بينما يتغزلون في العيون الواسعة، والنظرة الساحرة، والأسنان اللولي، وربما يغفرون لها كل خطاياها، إن اعتبرنا حياة الإنسان صفحة واحدة لا تنفع مع بقعها كل المزيلات.

لم تكن خروجات صديقاتي بريئة في أغلب الأحيان، إن اعتبرنا أيضًا أن العلاقة بين الولد والبنت ذنبًا، والحب خطيئة، واللمس لممًا. وبهذا كنتُ أنا الطرف الثالث، التي تصطحب صديقتها أثناء مقابلتها لكائن فضائي يسمونه رجلًا، نعم، كان كائنًا فضائيًا بالنسبة إليّ، أنا الفتاة التي لم تلمس يدًا خشنة، و لم تشم رائحة سجائر في فم، و لم تشعر يومًا أنها أنثى.

لا، أنا الكائن الفضائي في حقيقة الأمر، كنتُ أجلس مع عاشقين، أستمع كلمات الوَله، أرى القبلات، وأشعر بيدٍ تتحسس جسدًا ليس جسدي. هكذا كل يوم، وأحيانًا كثيرة في اليوم عدة مرات. ولأنها علاقات لا تدوم، ولأن عشيق صديقتي الأولى قد يصير عشيق الرابعة بعد أشهر قليلة، ولأن صديقاتي كن جميلات، لعوبات، يبحثن عن الحب طوال الوقت، ولا يمللن من تكرار التجارب والفشل، أصبحتُ أنا، دون أن أدري، حاوية أسرار. كل ذلك لم يفقدني إيماني بالحب، فقط أصبح بالنسبة إليّ لغزًا يصعب فك شفرته.

لكن الأمر لم يتوقف عند مرحلة عمرية بعينها، فقد كنت دومًا مغناطيسًا للفتيات، وأستطيع أن أقول إنني صرتُ أكثر فتيات مدينتي الصغيرة شهرة، وأصبحن يتهافتن على السير معي، والجلوس بجواري، ودعوتي إلى غداء، أو الجلوس لتناول شيء في كافتيريا. ولن أنسى أيامًا كنّ يحجزن لي في المكان المجاور لهن في السينما، وبعض المناوشات بينهن لينلن شرف أن أصطحب إحداهن في الخروج. ولم يكن ذلك بالطبع لأنني مفسرة أحلام. وكنتُ على الدوام الصديقة التي تُقدَم لكل الأولاد على أنني الصديقة الحميمة، ووراء ذلك يكمن سر آخر، أن الرجال يحكمون على النساء بناءً على الصديقات المقربات، ولأن أحدًا لم يرتّب في حسن تربيتي وأخلاقي، كان مكسبًا لهن أن أكون صديقة تبدو مهملة في نفسها، تعشق القراءة، قبيحة، وبالتالي بلا علاقات.

وسريعًا ما كنتُ أقبل دعوات جاءتني من صديقاتي لزيارتهن في منزلهن

والتعرف على عائلاتهن، كما لو كان ذلك مهمة مقدسة ليس بوسعي أن أتخلى عنها. فتبدأ ثقة الأهل في قبحي وجدِّيتي، وهكذا تزال جميع العوائق أمام صديقاتي للخروج في أي وقت يرغبن. ورغم أن دوري مع مرور الوقت كان يتضاءل لأسباب تتعلق بالإرهاق، حيث كنت أكتفي بالمرور عليهن حتى يقابلن عشاقهن، وأجلس معهم قليلًا وأنصرف، إلا أنني كنت حاضرة دومًا في جلساتهم، وكلما نشبت مشكلة ما، أو سوء فهم بين الطرفين، أو لعبت إحداهن بذيلها وأقسمت أن ذلك لم يحدث، وأنها كانت معي في هذا الوقت والساعة، كان العشاق يهاتفونني باستمرار ليطرحوا سؤالًا، أو استفسارا، أو لإبداء شك. وبما أن صديقاتي كن كثيرات بشكل مفرط، كان هاتفي المحمول لا يتوقف عن الرنين.

كنت الطرف الثالث، الذي شاهد وشهد على الآلاف من قصص الغرام، الحقيقية والمزيفة، وحلَّال المشاكل العاطفية، الصغيرة منها والكبيرة، والمشاهد الدائم للقبلات الحارة، واللمسات الحانية. فقط. ليس إلا ذلك. الطرف الثالث في علاقة لا تصح إلا أن تكون ثنائية. كنتُ هذه الفتاة التي قد تشاهدها في أحد المطاعم بجوار عاشقين، تأكل في صمت وتضع وجهها في طبقها، بينما هما يتبادلان كلمات العشق، ويضع كل منهما، في حب، ملعقته في فم الآخر. الفتاة التي قد تراها في السينما، أو المسرح، بجوار فتاة أخرى يقترب منها عاشقها ليهمس في أذنها بكلمة، أو ليقبّلها في لحظات الإظلام. نعم، أنا هذا الكائن الهلامي الذي لا يمكن تصنيفه ذكرًا أو أنثى، فأنا في عرف الرجال شبيهة لهم، وفي عرف النساء وسيلة لإبراز جمالهن، أو التستر عليهن.

لا أدري كيف صرتُ، بكل سذاجة، الطرف الثالث. كان الأمر بالنسبة إليّ في البداية معروفًا أقدّمه لصديقات، ثم صار مع مرور الوقت لعبة، أتعرّف على قوانينها وأنا على يقين أنني لن ألعبها، لأسباب أعرفها. ثم تحول وصار حلمًا، وتجسد الحلم في خيالي حتى كنت أظن في بعض الأحيان أن كلمات الغزل الرقيقة تنصب في أذنيّ أنا، وأن القبلة تلامس شفتيّ. ربما دفعني ذلك، ذات يوم لا ينسى، أن أزجج حاجبيّ، وأضع كريمًا يفتّح بشرتي ومسحوقًا يضيف إليها احمرارًا لم أعرفه حتى في أشد لحظات خجلي، وأرسم شفتيّ بلون يخدع الناظرين.

لكن، لأن القدر، هذا اللغز الثاني الذي لم أفك شفرته بعد، أراد شيئًا آخر، صرتُ كما البهلوان الذي أراد أن يُضحك الجمهور، فضحكوا، لكن عليه. يومها، نظرتْ إليّ أمي، وبدلًا من أن تخبرني أن الحاجبين مختلفان في الشكل، وأنني بالغت في وضع البودرة، وأن اللون الأحمر ليس هو اللون المناسب لشفتيّ المكتنزتين، انفجرتْ في الضحك، فخرجتُ من البيت ناقمة عليها.

في الشارع، سمعتُ كل ما يمكن أن تسمعه فتاة قبيحة أرادت أن تصير جميلة، كل كلمات السخرية، حتى تمنيتُ أن تبتلعني الأرض. ناديت لإحدى صديقاتي من تحت البناية، متجنبة تمامًا أن يراني أحد أبويها. هي الأخرى لم تتمالك نفسها من الضحك، بينما أنا ألعن اليوم الذي فكرتُ فيه أن أصير أخرى. في النهاية حدثتني أنه ليس لدينا وقت لإصلاح ما أتلفته، فالعاشق الولهان ينتظرها. هناك، في مكان الراند فو المعتاد، وجدت عاشقين جالسين مع صديقة أخرى في انتظارنا. جلس

كل منهما بجانب فتاته وبدأ لحن الناي يعزف في تؤدة. اقترب الجرسون ليسأل عما سيتناولون، دون أن يغض بصره عن قبحي المصطنع، فكانت نظراته كسكين يقطع إنسانيتي ببرود.

بعدها اقترب أحد العاشقين من الآخر، وقال بكل وقاحة وبلغة بذيئة، ظنًا منه أنني لا أسمع: هل تذكّرك هذه الفتاة بشيء، فنظر إليّ الآخر في الخفاء، وصمتَ، حينها واصل الأول أنني أشبه الخصيتين، فلا أنا أمارس الجنس فأشعر باللذة، ولا أنا أخلو من النجاسة. وانفجرا في الضحك، بينما شعرت أنا برغبة في التقيؤ، رغم أني، وقتها، لم أفهم المقصود جيدًا، ولم أر في حياتي شكل الخصيتين. احتملتُ هذه السخافة في صمت، وأكملت الجلسة للنهاية، حتى أصطحب صديقتي إلى بيتها، كأمانة يجب أن تُرَد.

بعدها، قررتُ ألا أقترب من وجهي، أن أتركه لمصير اختاره له قدر غامض، أكثر غموضًا من حياة ما بعد الموت. حتى جاء هو. اقترب مني في خجل، وسألني بصوت خفيض إن كنت مرتبطة. كانت الصدمة أكبر من أن أنطق، فتسمّرت عيناي في صديقتي المجاورة، التي أجابته نيابة عني، لا. وأعطته عنوان بيتي، ورقم التليفون، وأخبرته أن أنسب الأيام يوم جمعة.

وقبل أن أخرج من دهشتي، سحبتني من يدي، وباركت لي، وأثنت على وسامته، ولباقته في الحديث، الذي لم يتعد جملة واحدة من ثلاث كلمات. في اليوم التالي أخبرني أبي بموعد مجيء الزائر. وفي الزيارة الأولى،

دون أن يعرف أي منا شيئًا عن الآخر، سوى الظواهر، تم الاتفاق على الخطبة، وموعد كتْب الكتاب.

أول هاجس كان يدور في رأسي كفكرة متسلطة أن أذهب معه إلى نفس مكان راندوفوهات صديقاتي، أن أجعلهن يرين بأعينهن رجلًا يتحسس يدي، يهمس في أذني، يقبّلني قبلة حارة. وأن يراني الجرسون، الذي نظر إلى قبحي المصطنع، ليعلم أن غيره قد فُتن بي. كنت أود يومها أن أقابل هذا البذيء الذي شبّهني بالخصيتين، ليعلم أن لي أيضًا معجبين. كانت هذه هي نيتي بكل براءة، لكن خطيبي كان له رأي آخر. سألني إن كنت قد جئت إلى هذا المكان من قبل، فأنكرت. إن كنت أعرف الجرسون الذي يلاحقني بنظرات يظنها خفية، فأنكرت.

إن كنت قد عرفت رجالًا من قبل، فواصلت إنكاري. قضينا جلستنا في أسئلة وأجوبة، وتركنا المكان. في طريق العودة رن تليفوني المحمول، كتمت الصوت و لم أرد. عاود الرنين، ففعلت نفس الشيء. في المرة الثالثة، وكان خطيبي قد فقد أعصابه، ولابد أن الشك قد تحرك في قلبه، أمرني أن أجيب. كان أحد عشاق إحدى صديقاتي وقد نشبت بينهما مشكلة. ارتبكت وعجزت عن النطق. أنهيت المكالمة سريعًا وصار وجهي، لأول مرة في حياتي وبدون مساحيق، أحمر مثل طفل حديث الولادة. وكانت دقات قلبي تنبئ أنه على وشك الهروب من فمي. عندما وصلنا إلى باب البيت، نظر إليّ الرجل الوحيد الذي لم ير قبحي، الذي لمس يدي، الذي صب في أذني كلمات إطراء، ودون أن ينطق بكلمة، خَلَعَ الدبلة من إصبع يده ووضعها في كفي، بينما كان تليفوني المحمول يرن بصخب، وتظهر

على شاشته الملعونة اسم عاشق آخر لصديقة حمقاء. لم أشعر بنفسي وأنا أركض خلف خطواته الواسعة، ملقيةً حقيبتي وتليفوني المحمول على الأرض، وأصرخ بهستيريا لم أعرفها من قبل، بأنني لم أكن سوى الطرف الثالث، لم أكن سوى الطرف الثالث. سقطتُ على الأرض من الإعياء، وأمسكت بقدمه اليمنى، انحنى هو ليساعدني على النهوض، فلما استعصت قدماي، جلس هو على ركبتيه. مسح دموعي بيد حانية، بينما ظللت أردد كالمجنونة دون أن أرى شيئًا بسبب دموعي التي كوّنت غمامة على عينيّ، أنا طرف ثالث، قلتُ وشردتُ. كنت أقل صديقاتي جمالًا، لذلك كنت صديقة لهن.

* * *

كل كلماتي ودموعي لم تشفعا لي، وكان محقًا. فاختفى من حياتي، وظللت أنتظره بعيدة عن صديقاتي، اللاتي تزوجن وأنجبن، وبقيت وحدي. انتظرته لأنه الرجل الوحيد الذي رأيت في عينيه نظرة إعجاب، حتى جاءني هذا الرجل الذي سأجلس بجواره في الكوشة بعد عدة ساعات، تقدم لخطبتي منذ أربعة أشهر، وبعد أسبوع تمت الخطبة، وبالأمس كتبنا الكتاب، وبعد ساعات سيضاجعني. وأنا لم أقل لا.

4

أتأمل شكل غرفتي في صمت وأنا جالسة في منتصفها. ليست إلا أربعة حوائط، هناك حائطان لا يمكن اختراقهما، يشبهان الحياة والموت، وحائط يقطعه باب يؤدي إلى الصالة، إلى الأمان المفترض، هو صورة طبق الأصل من الحياة التقليدية، طاعة وخضوع وضعف، وزوج وزوجة وأبناء، وأثاثات صامتة، أما الحائط الرابع فيقطعه باب شرفة تطل على شارع لأصل إليه يجب أن أقفز بكل قوتي، مجازفةً بسلامتي، على يقين تام أن جزءًا مني سيتهشَّم، وأنني سأسير بعدها عرجاء لوقت غير معلوم، لكن حتمًا سأكون أكثر سعادة رغم ألمي لأنني اخترتُ ما أردتُ.

ربما كان من الأفضل دومًا أن نجد من يضع لنا سلمًا يساعدنا على الهبوط للشارع من خلال الشرفة، قد يتحقق ذلك للبعض، لمحظوظات وجدن

من يهبهن الأمان والحب والحرية، أما البعض الآخر، من أنتمي إليهن، فليس أمامهن سوى القفز والسير عرجًا حتى تستقيم الحياة. محاولات السير هي التي تعلمنا السير، أما الجلوس فهو أرض خصبة للعجز. ليس محض مصادفة أن حوائط الغرف أربعة، ولا أن بابها على اليمين، بينما باب الشرفة على اليسار. لماذا يجب أن نسير دومًا جهة اليمين؟ ولماذا نفترض أن الخير كل الخير في ناحية واحدة؟ اليمين هو كلمة نعم، التي لم أعرف سواها حتى هذه اللحظة، والتي وضعتني في هذا المأزق. نعم، هي التي جعلتني طرفًا ثالثًا، وهي التي جعلتني أكثر قبحًا عندما امتنعتُ عن نتف شعر وجهي وجسدي لأن أمي تقول إن العذراوات لا ينتفن، وهي الكلمة التي قلتها لصديقاتي عندما نصحنني ألا أخبر خطيبي السابق بتفاصيل حياتي، قلن لأن الرجال يفترضون دومًا أن الحكايات تنقصها بقية. نعم في مأكلي وملبسي، في كلامي وتفكيري، في دراستي وقراءتي. لكن لا يصح نعم في الرجل الذي سيضاجعني.

أشعر بالدوار، أترنح في مجلسي، تمر حياتي أمامي كفيلم لم أكن يومًا بطلته، لستُ سوى كومبارس جاء ليؤدي بعض الحركات ويتفوّه ببعض الكلمات التي حفظها دون اقتناع منه ليرددها على مسامع المشاهدين. كومبارس في فيلم يحمل اسمي، وتم ترويجه باعتباري بطلته. أنظر إلى سقف الغرفة وأبتسم بصوت أسمعه، هذا هو سقف حريتي المفروضة من قبل أمي والناس أجمعين. أخرج للشرفة وأنظر للسماء، هذا هو سقف حريتي التي فرضها الله. أقرر أن أقص شعري، فأشعل النور وأمسك المقص. أشعر بنشوة وأنا أفعل شيئًا لم يمله عليّ أحد. أبتسم في مرآة

التسريحة، أصبحتُ أصغر سنًا، وألمح جمالًا لم ألحظه من قبل، عيناي تلمعان رغم كل شيء ولم ينطفئ بريقهما. وبينما أضع الشعر في سلة المهملات، أشعر بالحصان الأسود، الجامح، يطل عليّ. أنظر إليه، فتغزوني طاقة إيجابية تدفعني لما أفكر فيه. تقطع تفكيري دقات الساعة. تشير للثالثة.

في ساعة مثل هذه ولدتُ، جئتُ للعالم عبر عضو ملعون، لعنه الكتاب المقدس حينما جعل المرأة أصل الخطايا، وجعل لعنته مستمرة بالنزيف الشهري وآلام الحمل والولادة. أي ذنب ارتكبته المرأة سوى أنه ليس لها عضو ذكري؟ وماذا كان سيحدث في العالم لو خُلِقَ نوع واحد وتكاثر ذاتيًا دون حاجة لنوع آخر؟ أي كتاب سماوي احترم المرأة؟ لسنا سوى أوعية، مجرد أوعية.

أكره رقم ثلاثة، يذكّرني بكل ما هو سيئ في حياتي، كنت ثالثة أب وأم. وكنت ثالثة بين صديقة وعاشقها. وفي الساعة الثالثة من اليوم الثالث بالشهر الثالث ولدتُ، وكأن القدر يتعمد إبراز علاماته لكل عين ترى، فيحدد بذلك مصيري.

رغم كل شيء، يهاجمني الآن، في هذه اللحظة تحديدًا، حب لذاتي. أتجوّل بخفة في غرفتي الرحبة ذات الحمّام المستقل، وكلما عبرتُ أمام مرآة التسريحة توقفتُ. أراني أكثر قوة، رغم جسدي المنهك وهاجسي بخيبة الأمل. ألمح في وجهي، مع شعري القصير، طاقة إلهية اخترقتْ حوائط غرفتي وجسدي وسكنتْ روحي، فانعكست في وجهي.

أنا الآن امرأة أخرى، أردد بصوت مرتفع. امرأة قادرة على خلق الطرق التي ستسير فيها حياتها، ولا تهتم سوى بصوتها الخاص. تتعاقب الصور في ذهني بشكل لا يمكن إيقافه. أجلس على الأرض وأفرد جسدي بتأنٍ، كأنه قطعة زجاج. تتوقف صورة أبو الهول وتملأ عينيّ فتتوارى خلفها كل الأشياء. يتردد بداخلي سؤال لم أعرف يومًا إجابته، أي شيء تغير حول هذا التمثال الخرافي المكون من رأس إنسان وجسد أسد؟ نفس الشمس والقمر، الرمال والرياح، نفس البشر بآلامهم وخضوعهم. الشيء الوحيد الذي تغير، ويجب أن يتغير لأنه قرر ذلك، هو أنا. أبتسم للحصان الأسود، الجامح، ابتسامة امرأة عرفتْ، بعد أن قضتْ نصف عمرها المفترض، أن الإنسان إله في ذاته.

أنهض لأسترخي على سريري. أفكّرُ أن حقيقة الجمال تكمن في العين التي ترى. أسخر من الفكرة بداخلي، وأنفضها عن رأسي. أستدعي النوم بكل التمائم، أدعوه بكل ما هو مقدس ليخلّصني من أرقي، من دوراني حول ذاتي، وربما من الجنون الذي أقف على عتباته. أؤدي طقسي لمصالحة الحلم، أنام على ظهري ناظرة إلى السقف لعدة دقائق، أضع ظهر يدي اليمنى على جبهتي، أغمض عينيّ وأتخيلني مرهقة، مرهقة جدًا، ألهث من الركض والعطش على رمال شاطئ أمواج بحره عالية ومجنونة، أجري وأجري في ظلام لا يقطعه سوى طلة قمر خجول. أستيقظ صارخة... رأيت في المنام أن لي عضوًا ذكريًا.

* * *

يعيدني الحلم هذه المرة إلى منطقة أخرى في حياتي كانت على وشك التلاشي وسط ركام الذكريات الموجعة. الرجل الوحيد الذي رأيته حتى سن السادسة كان أبي. لم أكن أدرك الفرق بين الذكر والأنثى حتى ذلك الحين، وكنتُ أقع في حيرة عُظمى عندما تقع عيناي على مكان بارز بين فخذيه. في مرات كثيرة كنت أتعمد ملامسته فينهرني، فوجدتُ طريقة أخرى للاقتراب بلا توبيخ، الجلوس على حجره أو بين فخذيه، دون إبداء أية رغبة في ملامسة مكانه البارز.

حينها كنتُ أشعر بدفء هذا المكان، فيهبني دفئه شعورًا بالأمان الممتزج بالنشوة. وذات ليلة صيفية، استيقظتُ على كابوس من كوابيسي المعتادة، فدفعني الخوف نحو غرفتهما(أحيانًا كنت أنام بمفردي)، لأجد أبي واقفًا بعضو منتصب وأمي من خلفه تداعبه بإحدى يديها. (أحاول استرجاع الصورة بتفاصيلها فلا أرى الخصيتين، اللتين وصفني أحدهم ذات مرة، بكل وقاحة، أنني أشبههما).

أذهلني شكل العضو، ولكن ما حرّك الغضب في نفسي أنه سمح لأمي بما حرّمه عليّ. أظن أنها كانت ليلة فاصلة في حياتي، وحدَثٌ بنى جدارًا أو أحدث شرخًا في علاقتي بهما على حد سواء، كنتُ كثيرة البحث عن أبي وأود بكل طاقتي أن أنتزعه من أمي دون أن أحقق ذلك، فولّد ذلك في نفسي شعورًا بخيبة الأمل كانت عاقبته أنني ابتعدتُ عن أبي تمامًا، ووجدتني مضطرة للاقتراب من المرأة التي انتزعت مني حبيب طفولتي، فشعرتُ دومًا أنها تقهرني. كانت تقهرني بحرماني من الخروج من البيت،

بحكاياتها التي لازمتني طيلة حياتي، بمخاوفها التي صبتها في أذني، بعزلتها التي فرضتها عليّ دون إرادة مني. قهرتني عندما أورثتني الشعور الدائم بأن المرأة يجب أن تكون مقهورة لتنعم بالراحة، فبدأتُ مع الوقت أدرك معنى أن تكون أكفّ أيادينا متشابهة حد التطابق، وأيقنتُ أن مصيري هو نفس مصيرها، زوج يعاملني كوعاء، وعزلة أقضي وقتها الطويل بين جدران صماء لأسرد الحكاوي والأساطير والخيالات لطفلة قبيحة تشبهني. لذا، بدأتُ مع بداية مراهقتي في شراء وقراءة قصص الأطفال، كنتُ أنتقي منها الحكايات الأكثر تشويقًا والأقل رعبًا فأحفظها عن ظهر قلب، حتى لا أبعث بخوفي إلى ابنتي التي لا تزال في عالم الغيب.

انتقلنا للمدينة وعشنا في بيت جدي وأنا في السادسة، فنُلتُ جزءًا من حريتي. ذهبتُ للمدرسة ومشيتُ في الشارع وكوّنتُ صداقات. رأيتُ بشرًا في نهاية الأمر يختلفون عن أبطال حكايات أمي، على الأقل في ظاهرهم. وقتها شعرتُ أن شيئًا ما ينقصني، تمنيتُ بقوة طاقتي أن لو كنتُ ذكرًا، بقوة الذكور وجرأتهم وتحدّيهم للعالم؛ ولأن ذلك ضرب من المستحيل، اكتفيتُ بأن أقلدهم في كل شيء، ملابسهم وطريقة حديثهم واستخدام مفرداتهم الخاصة. لم أجد تعارضًا من أبي، الذي كان يشجعني على ذلك، بينما كانت أمي تنظر لي بريب دون أن تترك تعليقات تحفر في ذاكرتي. رغم ذلك لم أصر ولدًا، ولم أشاهد ولو مصادفة نظرة تعبر عن سعادتهما لامتلاك مخلوق في بيتهما. بينما رأيت مئات المرات عائلات صديقاتي يفرحن بالقطط ويدللونها.

***

أتكون رؤيتي مجرد رغبات قديمة وقعتْ في منطقة اللاوعي، والآن تظهر عن طريق الحلم قبل زفافي بليلة؟ هل يعني تكرار الحلم أنه سيتحقق، كما كانت أحلامي دومًا متحققة؟ الرؤية بالنسبة إليّ حقيقة أخرى أكثر يقينًا من الواقع. بدأت أرتبك.

الساعة تشير للرابعة. أغمض عينيّ. أشعر بروحي تُسحب إلى أعلى، تمر بأماكن لم أرها من قبل، وتشم روائح لم آلفها. أصوات هامسة تحيط بي وتخترقني. تناديني باسمي الذي أعرفه ولا ينتمي لي في ذات الوقت. وجوه لا عدَّ لها تراقبني، تنظر لي بنظرات لا أستطيع فك شفرتها.

أستيقظ على شقشقة الفجر. أنتبه أنني نسيتُ إغلاق الستارة. أنظر في الساعة. الخامسة وعشر دقائق. هل وراء تعاقب الليل والنهار فلسفة لم أدركها من قبل؟ يقولون بعد كل ليل نهار، ألم ينتبهوا أن بعد كل نهار ليل! أظن أن الإنسان فُطر على الحزن، رغم أنه يبحث دومًا عن الأمل في مفردات الطبيعة، الشروق، تغريد الطيور، لون البحر، لكنه يتجه لا إراديًا إلى ما يغذي حزنه، فيعشق الغروب، ويستمتع بالموسيقى الحزينة، ويُثار مع التراجيديا. أكثر العبارات التي تترك فينا أثرًا هي تلك الناتجة عن خبرة سيئة.

لماذا أفكر في كل هذا الآن؟ ربما هي هلاوس الأرق التي حتمًا سأتخلّص منها يوم أجدني. إن وجدتني ذات يوم. أدخل الحمّام بخُطى بطيئة بينما أتثاءب. أضع رأسي في الحوض. ينساب الماء الغزير على شعري القصير ويغزو فروة رأسي. أشعر بلذة كأنها المرة الأولى. أردد كلمة المرة الأولى

بصوت مسموع، وأسخر بنصف ابتسامة من العدد اللامتناهي من الأشياء التي لم أعرف لها مرة أولى رغم وصولي ما يقترب من نصف عمري. هل ستختلف أفكاري لو جرّبتُ مرة واحدة كل ما حُرمتُ منه؟ هل رؤيتنا للعالم تتشكّل فقط من خبرتنا؟ أم أن تجارب الآخرين تشكّل وعينا؟ أعرف الإجابة لكنها ما عادتْ تشبعني، لم نُخلق في حياة واحدة لكي يمتلك أحدنا الحياة نيابة عنا، أفكر وأهمس: لكل منا حياة. أعلم أني ساذجة، وأن أسئلتي لا تضيف شيئًا لأحد، ولكنني لستُ فيلسوفًا ولا نبيًا كي أحلم بتغيير العالم، أو حتى لفت انتباهه إلى منطقة مظلمة. لماذا قلتُ فيلسوفًا ونبيًا في صيغة المذكر؟ أنا لستُ إلا فتاة في الثالثة والثلاثين، لم أقبّل رجلًا، ولم يشتهني رجل. لستُ إلا ثالثة ثلاثة، ورغم أني بدون رسالة، فإنهم يصلبونني.

5

كنتُ متفائلة جدًا عندما نطقتُ "ما يقترب من نصف عمري". ربما كان ذلك من تأثير دخول الصبح بعد ليل طويل، فرأيتني دون إرادة مني أتبع عاداتهم التي ما عدتُ أقتنع بها.

ذات صباح، أخبرتني كف يدي اليمنى أن ما تبقى من عمري سأعرفه يوم ميلادي الثالث والثلاثين. رَسَمَتْ خطوطًا وهمية، درجات سلم سيئة التصميم، سأصعدها حتمًا، مع تلك تاك الساعة الفضية، المعلقة في جزء من جسدي، والتي لن أعلم حينها من أهدانيها. كف يدي اليمنى، التي لا تكف عن إدهاشي، أخبرتني قبل ذلك أن طرقي غير مكتملة، ربما لأنني أسير في طرق لا أرغبها، بصحبة أناس يشدونني نحو رغباتهم، وعندما أفيق، أقف في المنتصف، وأسير بطريق عرضي، أعلم مسبقًا أنه لن يكتمل حتمًا. أخبرتني أيضًا، كأنها تهمس في أذني، أن الموت أقرب لي من ناصية

الشارع، ورغم أنني أعلم أن نافذتي تطل على صحراء خيالية، فإنني صدقتها. في إحدى أحلامي القريبة، رأيتني مع رجل غريب، يدعوني لقضاء عيد ميلادي الثالث والثلاثين. سألته في أي طابق يسكن، في الثالث والثلاثين، قال. ابتسمتُ، نظرتُ في كف يدي اليمنى، حينها لم أجد خط العمر... ربما ألمح أثناء صعودي بالأسانسير مئات السلالم، التي لا تخصني.

***

أغلق باب غرفتي جيدًا بالمفتاح وأخلع عني ثيابي قطعة قطعة. أقرر في لحظة جنوني الأولى أن أقف عارية أمام مرآتي. عارية تمامًا. أعطي ظهري لمرآة التسريحة وأمسك بإحدى يديّ، يدي اليمنى لأكون أكثر دقة، مرآة يد مستديرة، أرى من خلالها شعري القصير الذي لا يكاد يصل لبداية ظهري. أرى القناة التي تشق طريقها بين لوحتيه، قناة تمتد برشاقة حتى تصل لمؤخرتي، المستديرة أيضًا، والمنتصبة. أبتسم بزهوٍ وأشفق على الرجال الذين لم يرونها، وأشفق تحديدًا على رجل كان سيلمسها بعد ساعات من الآن. ألقي مرآة اليد على السرير، أقوم بحركة لاعب كاراتيه، وأقف بقوام مشدود وبتحدٍ حقيقي أمام مرآة التسريحة. أنظر إلى وجهي، أتصنّع، لاعبةً، ابتسامة تخرج صفراء، وأتأمل جسدي بتأنٍ. لي نهدان صغيران، مستديران، منتصبان، ينقصهما حلمتان بارزتان، وبينهما قناة متسعة. ليس لي بطن تقريبًا، وسُرّتي تنظر إلى المرآة في حياء، تود أن تقول إنها جمال مختبئ. أما عضوي الأنثوي... أما عضوي الأنثوي... كيف لا يظهر في المرآة! أشعر بدوار، أتأرجح، تمر في خيالي كل صوري التي رأيتها

في ألبومي، لكنها الآن حية، متحركة. أسمع صوت صراخي وأنا رضيعة، وأرى اصطدامي بالأرض أثناء تعلمي المشي، وأردد لعناتي المنصبَّة على رجال خلقوا تعاستي من العدم. أسقط للوراء بكل قوتي على السرير، وألمس بإرادة يغلفها الخوف عضوي الذكري شبه المنتصب. لابد أنني جُننتُ، حتمًا أنا جُننتُ.

أتقلّب يمينًا ويسارًا لأخرج من حالة التهويم. ألمح تليفوني المحمول مُضاءً. أمد يدي لأسحبه في تكاسل. أنظر إلى الشاشة وأضعه بجانبي. أفكر في أن لا طاقة لي للحديث مع أحد. يخطر ببالي أن شيئًا ما ربما حدث. أمسكه مجددًا. عشرون مكالمة فائتة. صديقات أو مجرد معارف هاتفنني وأنا غائبة عن العالم. أضغط على زر الاتصال دون أن أنتبه مَن أهاتفه. يأتيني صوت صارخ من الجانب الآخر: " أنا طلع لي بتاع". يسقط التليفون من يدي، وأهرول نحو الشرفة دون إرادة مني، ربما بحثًا عن هواء، وربما هربًا من مرآتي. أطل على الشارع فلا أرى أحدًا، أردد بصوت مرتجِف: كل الستات بقت زيي، كل الستات صحيت بأعضاء ذكرية! أفكر سريعًا أن أجري إلى أمي لأخبرها، لتنقذني من الجنون الذي يحيق بي. قبل أن أصل إلى باب الغرفة أتذكر أنني أغلقته من الداخل بالمفتاح. أتسمّر في مكاني، ثم أقترب لأفتحه متأنية، أفكر في السبب الذي جعلني أغلقه هكذا، مِن مَن كنتُ خائفة إن كنتُ أعيش بمفردي في البيت؟ أجلس على سريري مرتبكة، أفكر أنني فعلتُ ذلك حتى لا تضبطني أمي وأنا عارية أمام مرآتي. لكن أمي ماتت، نعم، منذ ثلاثة عشر عامًا، عندما كنتُ على عتبات العشرين.

كان يوم ميلادها الثامن والثلاثين عندما استيقظتُ في الثامنة صباحًا لأذهب للجامعة. دخلتُ عليها غرفتها. كانت وحيدة فوق سريرها وبجوارها صندوق صغير مفتوح، لمحت به أوراقًا و لم أهتم. طلبتْ مني أن أضعه في دولابها، بعدها اقتربت منها وقبّلتها على خديها وتمنيت لها عمرًا طويلًا، فعانقتني بحب لم أشهده منها من قبل، وترجَّتني أن أكون بجوارها في الثامنة مساءً. كانت مريضة جدًا، بعينين شاخصتين، وكنتُ في تلك الأيام أعود متأخرة بعد أن أنهي محاضراتي وأخرج مع صديقاتي وأشتري ما يلزم البيت. كان يوم سبت، ورغم أنني كنتُ أعلم صعوبة ذلك، فإنني وعدتها أن أكون في هذه الساعة في البيت، و لم يخطر ببالي وقتها لماذا هذه الساعة بالتحديد.

كل العلامات كانت تأمرني ألا أخرج من البيت، وأن أتعامل مع الواقع بكثير من التركيز، بداية من حلم الضرس الذي فقدته منذ عدة أيام سابقة، وتوقف أمي عن الأكل والشرب، ونهاية بملابسي التي لم تكن جاهزة للخروج. ربما ما جعلني أتعامل مع الحياة بتفاؤل أكبر هو كلمات أبي المطمئنة بأن أمي ما زالت صغيرة على الموت؛ أن الطبيب أخبرنا أنه التهاب في المعدة واضطرابات في القولون؛ أن أمها عاشت ستين عامًا؛ أن أمي يحلو لها المبالغة حتى تفوز بأكبر كم من الاهتمام. في الثامنة مساءً بالضبط كنتُ أفتح باب البيت. دخلتُ جريًا إلى غرفتها. كانت قد فارقتْ الحياة وصار جسدها باردًا.

يوم وفاتها أخبرتني إحدى الزائرات أن البنات يرثن مصائر أمهاتهن، وبكيتُ ساعتها كما لم أبكِ من قبل حين تذكرتها وهي تقارن خطوط

كفّينا وتخبرني أن لنا نفس الحظ. الغريب أنني أرى أمي باستمرار، أحدثها وتحدثني، تلازمني في يقظتي ومنامي، أمي متجسدة برائحتها التي لا تفارق أنفي ونظراتها الحادة ومفرداتها الخاصة، بل إنها صارت أكثر قربًا مني، دون أن أدري كيف يحدث ذلك. (في حين لم أكن أرى أبي في حياته، أم أني نقمتُ عليه منذ عرفتُ أنه لأخرى؟).

أرتاب في مسألة الحياة والموت، لأكُن أكثر دقة، أرتاب في الموت، ماذا يعني؟ إن كان الأموات يواصلون حياتهم في القبر، إن كانت الروح تخرج من الجسد لتعود إليه مجددًا، كيف يكونون أمواتًا إذن؟ هل البرزخ مرحلة انتظار؟ أم أنها عدم؟ مَن يستطيع أن يفسر لي ذلك يقينًا، بعيدًا عن آراء الدين والفلاسفة؟ مَن شاهد هذا بعينيه ليحكيه لي؟ مَن يعرف ماذا يفعل أبواي في قبرهما الآن؟ وهل هما في قبريهما حقًا؟ أمي ماتت لاتزال تعيش معي.

* * *

غواية أن أدخل غرفة أمي الآن تسيطر عليّ. أسير كالمنّومة مغناطيسيًا نحو دولابها المغلق منذ سنوات، أفتحه بلا إدراك وأسحب منه صندوقًا كانت تجمع فيه أشياءها، صندوق لم أتعرف عليه إلا يوم موتها. أفتحه بفضول وأسحب الأوراق المطوية طيّتين والمرصوصة بعناية. أفكر في أن الفضول لم يدفعني من قبل لقراءة هذه الأوراق، والآن، يا للغرابة، لا أستطيع مقاومتها. أجلس على الأرض وأبدأ، بصوت مسموع، في قراءة الورقة الأولى مصادفةً:

"حبيبتي ماما، النهاردة عيد ميلاد البنوتة، بقا عندها أربع سنين. حصل معاها حاجة غريبة حبيت أحكيها لك قبل ما أنام. كنت أنا وهي واقفين أودام التورطة اللي حطيناها على ترابيزة الأنتريه، ونور الأربع شمعات بيترقّص، وخيالنا على الحيطة بيترقّص معاه. فجأة لما أرّبت براسها علشان تطفي الشمع اتفزعت ورجعت لورا وبدأت تعيّط. أرّبت منها وخدتها ف حضني وسألتها مالك، آلت لي إنها شافت عفاريت خارجين من الشمع، وعلى الحيطان.

كنت أنا وهيه لوحدينا، ما أنا حكيت لك قبل كدا إن أبوها عمره ما حضر لها عيد ميلاد، ألت لها ما تخافيش من حاجة، وولعت النور وطفينا الشمع بعدها وأنا بغنّي لها. لما نامت أعدت وفكرت شوية، كنت متأكدة إن البيت مسكون. فاكرة زمان لما سألتك هي الناس لما بتموت بتروح فين؟ أولتي لي إن الجسم بيروح يدفن في تربته بس الروح بتفضل زي ما هيه في نفس المكان اللي كانت عايشة فيه، وأوقات بتخرج وتتفسح وتروح الأماكن اللي بتحبها. أنا من ساعة ما جيت البيت دا وأنا حاسة إن كله أرواح، طول الوقت بسمع أصوات كأنها جاية من عالم تاني بس تخصني أنا لوحدي، أصوات تشبه الهمس. طيب أأول لك سر؟ مرة خرجت من الحمّام عريانة، كنت نسيت آخد بشكير نضيف معايا، بمجرد ما خرجت وكان بيني وبين الدولاب تلات أربع خطوات سمعت صوت ست بتئول بعصبية: اختشي يا راجل واحترم نفسك دا أنا آعدة جمبك، وإنتي كمان ما تستري نفسك يا أختي. اتفزعت فزعة كنت هموت فيها وحسيت إن ألبي بيهرب من سدري ففتحت الدولاب وأنا إيدي بتترعش

ولبست أول حاجة لائيتها أودامي. الكلام دا كان بعد ما جيت البيت بكام شهر، وكنت لوحدي زي ما اتعودت بعد كده، وفاكرة إني فضلت ساعات بعدها حاسة بخوف مميت. بعد كام يوم بئيت متأكدة إن البيت مسكون، بس بأرواح طيبة، يمكن دا شجعني إني ألعب معاهم وأسلي نفسي في ساعات يوم طويل، فبئيت بجر شكلهم وكأني مش واخدة بالي: كنت أخرج من الحمّام عريانة وأسمع كلام الست الغيرانة على جوزها وبدأت أركز إنها ست كبيرة في السن، وفي مرات سمعت صوت جوزها وهو بيرد عليها وبيدافع عن نفسه وينكر.

كنت أفضل أدحك وأأول لهم أنا حرة في بيتي، بس كان واضح إن كلامي ما بيوصلهمش. تعتقدي يا ماما إنهم فعلًا ما بيسمعونيش؟ وفمرة أرصتني أرصة خرجت بالدم، فرُحت أعدْت ف الصالة وأنا زعلانة، فسمعت صوت طفل بيئول لي ما تزعليش، تيتا دايمًا كده، هيه متسرعة بس طيبة وهتعتذر لك بعد شوية. في الليلة دي لما جيت أنام حسيت بحد بيبوسني على خدي برقة وبيطبطب عليا، لما فتّحت عيني لائيت جوزي ف آخر السرير.

تفتكري يا ماما فعلًا في أرواح موجودة في البيت؟ والاّ دي الأصوات اللي المكان احتفظ بيها للأبد؟ فاكرة لما كنت بسألك الكلام اللي بنتكلمه بيروح فين؟ كنت بتدحكي عليا وتئوليلي بيطير في السما. مش عارفة ليه أوئات بحس إن الكلام بيفضل في نفس المكان، ومع الوئت بيبدأ يعيد نفسه لوحده، بحس كمان إن دا مش ضد فكرة إن الأرواح تفضل في

البيت، بدليل إن البنوتة كل يوم بتحلم بكوابيس وبتنوم مفزوعة. مش فاهمة ليه برضو هما مستئصدينها. الغريبة النهارده كمان إنها شافتهم، تفتكري شافتهم فعلًا؟ مش عارفة، بس عارفة إن الأطفال بيشوفوا الأرواح عادي جدًا، فاكرة لما مرة اتسرأ منك الدهب؟ وديتيني عند راجل عجوز بيفتح المندل وسألك إن كنت بلغت، أولتي له لسا ما بلغتش، ف آل يبئا كدا تنفع وفتح أودامي فنجان كبير وأرى على راسي كلام وساعتها شفت الراجل ال سرأ منك الدهب. يبئا كدا فعلًا البنوتة بتشوفهم.

أنا تعبانة أوي يا ماما وعاوزة أنام، ما تنسيش تجيلي النهارده في الحلم، مستنياكي".

* * *

6

شردتُ في أمي وشعرتُ بالخوف. نهضتُ من الأرض وحملتُ كل الأوراق إلى غرفتي. وجلستُ على سريري.

حكت لِي أمي ذات مرة حكاية المندل، قالت برعب لم يفارق عينيها: إن جدتي فكرت يومًا في أن تدخر كل ما تملك في الذهب، فخرجت إلى السوق واشترت غوايش وحلقان وخلاخيل. وقبل أن تصل إلى البيت هاجمها لص وسرقها. صمتت جدتي مدة يومين، وفي اليوم الثالث اصطحبتْ أمي إلى قرية نائية على أطراف المدينة، ودخلتا بيتًا قديمًا صحنه رحب. قابلهما رجل عجوز جدًا يبدو طيبًا، وأجلسهما على كنبة داخل غرفة ضيقة ليس بها إلا كنبتان ومنضدة صغيرة. استمع إلى جدتي بإنصات، وسألها عن عُمْر أمي، فقالت في العاشرة. فسألها إن كانت قد بلغت، فأجابته بالنفي. حينها لف حول رأس أمي ورقة بيضاء بها كتابة

بخط أحمر، وقرأ على رأسها كلامًا لم تتبيَّنه، ربما آيات وربما تعويذات، وأمرها أن تنظر في الفنجان الكبير جدًا الممتلئ بسائل يشبه الزيت، والذي كان أمامها على المنضدة.

نظرتْ في البداية بلا خوف، بينما كان العجوز يواصل القراءة. في الدقائق الأولى لم تر شيئًا سوى الفنجان بحوافه، بعدها اختفت الحواف لتظهر في وسط السائل كائنات ضخمة، ضخمة جدًا، رأت في البداية أقدامها فسيقانها فركبها فأفخاذها، وبينما تشعر بالرعب يسألها العجوز عما تراه، فتصف له، فيدعمها بتعويذاته حتى اكتملت الصور ورأت وجوهًا ضخمة بملامح مخيفة: عين واحدة بالطول في منتصف الوجه، فم عريض جدًا يمكن أن يبتلع العالم، آذان من كبرها لابد أنها تسمع دبَّات النمل في أعماق الأرض.

والعجوز لا يتوقف عن الهمس بالتعويذات في أذن أمي التي ترددها بدورها في الفنجان دون أن تغمض عينيها. عندما اكتمل العالم في السائل، أمرها العجوز أن تأمر المخلوق الواقف في المنتصف أن يكشف لها كيف سُرقت أمها. حينها تحول العالم وصار آخر. رأت بشرًا مثلها يمشون ويتكلمون ويأكلون ويشربون ويتجولون داخل سوق طويل لكنه ضيق، وفجأة ظهرت أمامها أمها وهي ترتدي جلبابًا أسود، وتحمل شنطة يد، تسير حتى تصل إلى محل ذهب كبير له باب خشبي من ضلفتين، في كل ضلفة لوح زجاج يمكن من خلاله رؤية مَنْ بالداخل. تحكي أمي أنها رأت أمها تدخل وتتحدث مع أحد الباعة وتختار عدة غوايش وثلاثة حلقان وأربعة خلاخيل. وزن البائع البضاعة وأخبرها بالثمن. أخرجتْ

المال من شنطة يدها، وبينما كانت تدفع ظهر في الفنجان رجل أقرع يقف بجانبه خارج محل الذهب، وينظر بطرف عينه اليسرى إلى أمها. خرجت جدتي وشنطتها معلقةً على كتفها وتحت إبطها، واتبعها نفس الرجل. في الفنجان، كان السوق مزدحمًا جدًا، وكانت أمها تسير بسرعة كأنها تريد الهروب من قدرها، بينما كان الرجل الأقرع يخترق المارة حتى لا تغيب عن عينيه. خرجت من السوق ودخلت شارعًا ضيقًا، اختفى البشر إلا أمها وخلفها الرجل بخطوة واحدة، حينها التفتَ حوله وضرب مؤخرة رأسها بمقدمة رأسه فاصطدمت بحائط بيت، فأمسك رأسها بيده وصدمها في نفس الحائط بقوة فنزفتْ.

صرختْ أمي التي كانت تصف للعجوز ما تراه بالتفصيل، فسألها إن كانت ترى وجه اللص، فقالت لا، فقط تراه من ظهره، فأمرها أن تأمره أن يلتفت لها، فالتفت، فرأت جانب وجهه. فأمرها أن تأمره أن ينظر إليها بوجهه كاملًا، فأمرته، فشاهدته. سألها العجوز إن كانت تعرفه، قالت لا. سألها إن كانت تستطيع التعرف عليه لو رأته، قالت نعم. فواصل في تعويذاته لتشاهد أمي اللص وهو يحمل الشنطة ويهرول حتى يخرج من الشارع الضيق ليدخل في شارعٍ بنفس الضيق، وبعدها يصل إلى شارع عمومي، فيسير على مهله مرتبكا حتى يصل إلى بيت من دور واحد، له باب قديم جدًا من ضلفتين وبجواره دكان محل مغلق. يفتح الباب ويدخل ويغلقه بسرعة.

سألها العجوز إن كانت قد حفظت المكان، قالت نعم، إنه في نفس المنطقة التي يسكنون بها. بعدها اختفى العالم في الفنجان، وظهرت

الكائنات الضخمة من جديد، فقالت أمي للعجوز إن المخلوقات الوحشية جاءت، فوبَّخها الرجل برفق وقال لها إن الرجل الواقف في المنتصف قرينك، سيلزمك طول العمر. ارتعبت أمي، فقال العجوز ليحميكِ فاشكريه. شكرت في طاعة، فنزع العجوز الطاقية الورقية الملفوفة بالخط الأحمر من رأسها. عانقتها جدتي لمّا رأت الرعب في عينيها، وسألتها عن المكان، فوصفته لها. قالت جدتي إنه لا أحد يسكن في هذا البيت، إنه مهجور منذ سنوات. فقال لها العجوز أن تتحقق. ودّعته جدتي بود وعادت بأمي إلى البيت. غير أن أمي، في الحقيقة، تحولت لأخرى.

الثلاثون يومًا التالية، حكت لي أمي، لم يفارقها القرين، ولم تعرف النوم. في كل الأماكن كانت تجده أمامها، بضخامته وقبحه، حد أنها كلما سقطت في النعاس جراء التعب، كانت تراه في منامها. والصرخات التي كانت تنطلق من عمق الليل، العينان الغائرتان والجسد المنهك، الرعب والفزع من مجرد الظل، أشياء علّمت أيامها خلال عدة سنوات تالية. ورغم تباعد صورة القرين عن ذهنها مع مرور الوقت، فإن اختراق هذا العالم كان يعني ترك جزء من الروح هناك.

* * *

أضع أوراق أمي على الكومودينو وأرقد عارية. أمي أيضًا كانت عارية قبل موتها بيومين، مع أن برد يناير لا يحتمل. كانت تقول إنها لا تحتمل أية قطعة ثوب على جسدها، وكانت رغبات قيء مستمرة تهاجمها دون أن تتقيأ. أدرك الآن فقط أن الروح كانت تريد الخروج، إلى أين؟ وفقدت شهيتها تمامًا ولم تحتمل حتى القليل من الماء. كل ما كانت تطلبه أن أبلل

لها شفتيها. حينها ترجّتني أن أغفر لها كل خطاياها، فكنتُ أبتسم لها وأهمس في أذنها أنها لم تقترف خطايا في حقي، بل فعلتْ كل خير. كنتُ أكذب، لكن بعض الكذب خير.

أتجه للدولاب لأرتدي روبي الأحمر الذي اشترته لي قبل رحيلها مع مجموعة من قمصان النوم، هي أشياء تشغل الأمهات عادةً حتى نحقق الغواية المطلوبة لرجل يتزوجنا، وفي حالتي، لأسباب مجهولة. أشعر ببداية دفء بمجرد أن يلمس جلدي، الذي كان مقشعرًا دون أن أنتبه له. لو أمكن أن ألخص طفولتي في كلمتين لصارتا: خوف وأرق. بقية حياتي تكفيها كلمة واحدة: برد.

عندما أتخيل خيبة الأمل أجدها مثل طريق من الثلج أسير فيه وبين قطعه تغوص قدماي؛ الدخول في حالة اكتئاب هي حالة الثلج؛ حتى الجراح التي تستنزفنا رغم سخونتها تتركنا مثلجين؛ يصير الجسد مثلجًا عندما تهاجرنا الروح، ونصبح أكثر ثلجًا كلما اشتدتْ صدماتنا. لكل هذا أنا مثلّجة الآن، رغم الدفء الذي منحه لي روبي الأحمر. لو كانت الصدمة أقل من ذلك لصرختُ. بخطوات أكثر ثبوتًا أتجه للشرفة من جديد. الصباح بسط جناحيه على الكون ليداري ظلمات ستعود بالتتابع. بوسعي الآن أن أستقبل لطمات العالم، تروق لي العبارة فأكررها بصوت مرتفع.

أطل على الشارع الرحب بفم مفتوح. أراه مكتظًا بعدد لا متناهٍ من النساء يصل حتى الميدان، ومن كثرتهن تختفي الأرض تحت أقدامهن. يقفن في شكل صفوف ودوائر، يهمسن في آذان بعضهن البعض، أو يتبادلن النظرات في صمت لا يقرؤه إلا من صارتْ واحدة منهن.

يدين دهشتهن مما حدث لعضوهن، يبحثن عن تفسير يحمل إلى قلوبهن السكينة التي ضاعتْ أثناء الليل. أكثرهن جرأة يتحدثن بصوت خفيض، بينما أكثرهن خجلًا اتخذن جانبًا، جلسن تحت شرفات البيوت التي ما عادتْ تنعم بهدوئها، أو افترشن الرصيف بين طريقين لا تمر فيهما سيارات منذ ساعات مضتْ. امرأة ثلاثينية تأكلها عانتها أثناء حديثها، فتهرش دون مبالاة، وتتحجر عندما تلمس عضوها الذي صار ذكريًا. تهتم بها صديقتها القريبة وتربت على كتفها ثم تعانقها.

من بعيد أرى أخريات يتجهن نحو الميدان، منهن من يضحكن مما جرى، وينظرن للمحبطات بسخرية ويشرن إليهن بأصابع تهكم. تتفق اثنتان منهن على الاقتراب من الفتيات الخجولات ومداعبة أعضائهن، فتنكمش واحدة، وتدفعهما أخرى، وتضربهما ثالثة. أبتسم لشقاوتهما، متعجبةً قليلًا من قدرتهما على تلقي الصدمة بقلب ضاحك.

تطل الشمس بخجل من خلف سحاب محمل بالمطر، دون أن يظهر أي رجل في الأفق.

أجلس على أرضية الشرفة ساندة ظهرى على سور احتمالية أن يحميني أقل بكثير من احتمالية أن يتهاوى بي. ومن مكاني أرى الصالة وكنبة الصالون والسجادة متداخلة الألوان. كل الأشياء بعيدة، رغم أن بيني وبينها خطوات معدودة. في خجل يطل عليّ جزء من باب الشقة، أعوِج رأسي قليلًا لأنظر إليه مبتسمة. من هذا الباب دخلتُ لأول مرة وأنا في العاشرة. في هذه السن رحل جدي عن العالم، ولم يستطع أبي الاستمرار في نفس المكان الذي شهد رحيله. قرر حينها بيع شقته وشراء

أخرى في مدينة جديدة، فكانت هذه المدينة التي أسكنها الآن، بمفردي، أكرر: بمفردي. منذ عبرتْ أمي هذا الباب أصابها جنون الونس، فصارتْ عاجزة عن الحياة بلا رفقة تسليها، هكذا صادقتْ كل نساء العمارة والعمارات المجاورة، وأصبحتْ تقضي معهن أغلب وقتها.

كانت أمي حكاءة عظيمة، تعرف من أين تبدأ حكايتها وكيف تجذب انتباه مستمعيها وتنطق كلمة النهاية في وقتها المناسب، وتصمت بعدها لتسمع أثر حكايتها على المتلقيات. كل شيء في حياتها كان مجرد حكاية، حتى عندما علّقتْ إحدى الجارات على قبحي حكتْ لها ما لم أتأكد أبدًا من صحته، أنه في ليلة 27 من رمضان، وبينما كانت جالسة بمفردها داخل غرفة النوم، رأت قرصًا مثل قرص الشمس في استدارته ونوره. شعرتْ بالخوف والتفاؤل معًا، وسمعتْ من يهمس في أذنها اليمنى بأنها ليلة القدر وقد جاءتها، وأن دعوتها مستجابة. كانت تحملني في شهرها الثالث، فدعتْ أن يرزقها الله بولد جميل، فجاءها همس أن الولد الجميل سيعذبها في الدنيا ويكون أصل كل تعاسة لها. فقالت بنت جميلة، فجاءها همس أن البنت الجميلة ستهجرها سريعًا وسيصيبها الغرور فتنقم على عيشتهم. قالت فليكن ولدًا قبيحًا، فجاءها همس أن زوجها لن يعطف عليه لقبحه. فتمنت بنتًا قبيحة، فوافقها الهمس مبتسمًا، بأن ابنتها القبيحة ستكون أوفر صحة وأكثر ذكاءً.

حينها اختفى القرص المستدير الذي كان مستقرًا فوق حائط، منيرًا الغرفة بأكملها. وتواصل، أن شهور الحمل الباقية كانت خفيفة، ولم تشعر بألم ولا ثقل وزن يعوق خطوتها، وأن ولادتي كانت أسهل من انتزاع

شعرة من الجسد، وأنني ولدتُ في كيس أخذته الداية لأنه يجلب حسن الطالع، وأخبرتها أنني مصدر لكل خير.

هنا تعجبتْ المستمعات وعانقتني إحداهن وربتَت على ظهري، وحسدنها على ظهور ليلة القدر لها. وحلت محل نظرتهن الأولى، المليئة بالشفقة، نظرة أخرى يطغى عليها التبجيل والتقديس.

* * *

تك تاك الساعة لا يصل إلى الشرفة، والطقس الغائم لا يدلني على المسافة المتبقية التي تفصلني عن ساعة زفافي. أنهض مترنحة صوب غرفتي معطية ظهري لكل ما يجري في الميدان، لكن صوت زغاريد يتقاطع مع صراخ يخترق أذنيّ فيوقفني، وقبل أن أخطو إلى عالمي الصغير تأتيني نهنهة وتشنجات أحدد مصدرها قبل أن أستدير وأنظر. كانت فتاة عشرينية ترتدي بنطلونًا جينزًا ومعطفًا أسود، تجلس مقرفصة تحت بنايتي، وبينما تبكي تردد كلمات عن خطيبها الذي سيفارقها حتمًا بعد أن صارتْ ذكرًا. بشكل لا يمكن تفسيره، التفتتْ نحوي وأنا أطل عليها، فكان جانب وجهها بنظرتها لأعلى مع شعرها الكيرلي وجلستها المقرفصة لوحة مرسومة بيد فنان لا يكف عن الإبداع. تضامنتُ معها بنظرة حانية، فابتسمتْ برقة. بين الإناث، الإناث وحدهن، خيوط غير مرئية تصل بين أرواحهن. بعدها نظرتْ نحو الجموع المحتشدة وسارتْ في اتجاه معاكس. لا أعرف أحقيقة أم خيال سماعي لدبات خطواتها على الأرض حتى بعد أن اختفت من الأفق.

أقترب من الكومودينو وأسحب ورقة من ورقات أمي. أجلس على سريري وأبدأ في القراءة بصوت مسموع:

"حبيبتي ماما:

النهاردة كان سبوع بنوتي، جوزي بيئول إنها وحشة شبهي، بس أنا شايفاها جميلة، زي ما إنتي كنتي شايفاني جميلة مع إن كل الناس كانت بتئول عليا وحشة. تفتكري يا ماما إحنا بنورَّث ولادنا أوحش ما فينا... سمعتك مرة بتئولي كدا، بس أنا مع الوئت بدأت ألاحظ حاجة تانية، إن ولادنا شبهنا، بياخدوا أشكالنا وأرواحنا ومصايرنا مع شوية تعديل علشان الحكاية ما تبئاش مملة. أنا دلوئتي عندي تمنتاشر سنة وإنتي في سني كان عودك نفس عودي وروحك تعيسة زي روحي، الفرق البسيط بيننا إنك كنتي فاكرة إن المخلوقات المخفية ممكن تسبب لك السعادة، وأنا عكسك عارفة إنها من أسباب تعاستي. عارفة يا ماما، من ساعة ما جينا المكان دا ما خرجتش من البيت، جوزي بيتكسف مني بس بيتحجج بحاجات تانية، مرة يئول إنه بيخاف من الحسد ومرة يئول إنها بلد مليانة أكلة لحم البشر، حتى الولادة كانت في البيت، والسبوع النهارده عملناه من سكات، وكان نفسي تبئي معايا.

كل دا مش مهم يا ماما، أنا بعرف أعيش لوحدي مع إني أوئات بحس بملل، بس في معظم الوئت بلائي اللي يسليني. أأول لك حاجة ومتئوليش عليًّا مجنونة؟ كل يوم بحكي لبنوتي حكايات، مش بس من يوم ما اتولدت، لأ دا من يوم ما عرفت بوجودها جوايا. حاسة كأني كنت نائصة وهيه جت تكملني.. أنا كنت كدا بالنسبالك يا ماما؟ لو كدا، ليه

وديتيني عند بتاع المندل؟ عارفة يا ماما، أنا حاسة إني اتعديت خط ما كانش ينفع أعديه، أو دخلت عالم مش بتاعي، ومش عارفة أرجع منه. في حاجة كمان، حصلت لي مشكلة تانية كنتي إنتي سببها، إنتي أقنعتيني طول الوئت إني حلوة بس الناس صدموني بعد كدا. علشان كدا لو بنوتي طلعت فعلا وحشة هئول لها وأفهّمها دا عشان ما تتصدمش. عارفة يا ماما، أنا بستغرب نفسي وأنا بئول بنوتي، حاسة إني أصلا لسا صغيرة.

ماتزعليش مني يا ماما، كلمتين كنت عاوزة أأولهم وخلاص، وإنتي ألبك كبير.

بحبك أوي، ووحشتيني أوي. هستناكي النهارده في الحلم".

7

أشعر برغبة ملحّة في النوم، كأن جسدي أعلن حالة تمرده. أضع رأسي على وسادتي بيقين أن النعاس لن يقترب من جفنيّ. تطاردني صورة خطيبي كلعنة للتخلص منها يجب أن أقدّم قربانًا ما زلتُ أجهل كينونته. يقترب بوجهه الضخم وشاربه الكث فاتحا فمه ليلتهمني، بينما يداه بأصابعهما الطويلة المنفرجة تتلاعبان حول وجهي حينًا وحول رقبتي حينًا آخر. كل أفلام الرعب التي شاهدتها في حياتي تتضاءل أمام هذه الصورة – الكابوس.

أسترجع حكايتي معه من البداية (هل هي حكاية حقًا أم حادثة؟). رغم قرب الحدث تتوه عني تفاصيله، لا أستطيع تذكر كيف وصلنا لهذه النقطة. هل تقدم لطلب يدي من أبي، الذي وافق على الفور ليرتاح

بعد ذلك في عالمه الآخر؟ أم أنه استوقفني ذات مرة في الشارع، بعد أن استقصى عني وعلم أني يتيمة الأبوين، فوافقتُ أنا على الفور لأتخلّص من نظرات الجيران، التي تنقسم بين الشفقة والارتياب؟ في كل الأحوال أُجبرتُ على الزواج؛ في الحالة الأولى فعلها أبي، وفي الحالة الثانية فعلها الآخرون. ربما حينها أعطيته موعدًا ليزورني في البيت في حضور أقاربي ليتم الاتفاق، وطرقتُ باب جار عجوز وطلبتُ منه خدمة أن يمثل دور خالي. لا بد أنه حينها جاء الرجل وزوجته وانتظرنا العريس الذي جاء وحيدًا معللًا ذلك بأنه يتيم. تحدثوا كثيرًا دون أن أسمع شيئًا سوى عبارة واحدة كادت تقتلني، اللي زي بنتكم الواحد يغيب عنها وهو مطمّن. كان يمكن فهم العبارة باعتبارها مدحًا في الأخلاق، لكنني أعلم يقينًا أنه يقصد قبحي. ما يحيّرني الآن حقًّا التباس صورة أبي بصورة جاري العجوز، لا أستطيع أن أتذكر في وجود أيهما تمت خطبتي.

في بعض الأحيان تلتبس أحلامي بواقعي. علمتُ ذلك بمحض مصادفة عندما مررتُ ذات مرة ببائع الجرائد الذي أعرفه منذ قدومي لهذه المدينة. اشتريتُ منه كتاب طبيبك الخاص وجرائد اليوم وروايات للجيب، وعند انصرافي سألته عن زوجته، فأخبرني بحزن أنها ماتت منذ شهرين وأنني قدمت له العزاء. ظللتُ أتعامل مع هذا الحدث كحلم سيتحقق حتمًا. وأثناء تجوالي بالمدينة ذات ليلة هربًا من وحدتي، اقتربتُ منه وسألته عن زوجته التي لم أرها منذ فترة. هذه المرة ابتسم الرجل وربت على كتفي وقال لي بنبرة أبوية إن زوجته ماتت منذ عدة شهور وإنني قدمت له العزاء. أربكني الرجل بهدوئه وطيبته، فاعتذرت له عن ذاكرتي الخربة، وسرتُ

في طريقي بريب أن الجدار المشيد بين واقعي وأحلامي صار متآكلًا. في تلك الفترة بالتحديد استيقظتُ مفزوعة على صوت كسر أكواب في المطبخ، فوجدتُ هناك بقايا زجاج صغير في الأرضية، وفي كيس الزبالة وجدتُ قطعًا كبيرة لثلاثة أكواب. لم أتذكر أبدًا متى حدث ذلك، ولكنني فكرتُ أنني أعيش في عالمين في ذات الوقت، أو عالم واحد له وجهان، تحدث الأشياء في أحدهما لتتكرر في الآخر. فكرت أن هذين العالمين يلتقيان حتمًا في نقطة ما، أجمعهما أنا، لكن ليس بوسعي أن أحدد أيهما يسبق الآخر. لا أنكر أن ذلك أثار فضولي، فأصبحتُ لا أعلم هل واقعي يتكرر في أحلامي أم أن أحلامي تتحقق في واقعي. كانت لعبة مسلية تملأ ساعات وحدتي، لكنها كانت خطيرة بما يكفي.

في طفولتي أيضًا كنت أعيش في عالمين، يقول أحدهما إنني ابنة هذه المرأة وهذا الرجل، ويقول الآخر أقوالًا شتى: هذا الرجل خطفني أنا وأمي من أبي الحقيقي، ولا مخرج أمامنا سوى طاعته؛ هذا الرجل وهذه المرأة خطفاني من أبويّ الحقيقيين، لهذا يحبسانني .ويعاملاني بقسوة؛ لا بد أنني كنت أميرة من عائلة ملكية، أو أن هذا الرجل وزوجته لا يستطيعان الإنجاب فخطفاني. أحيانًا كنت أتخيل أنني لو فتحتُ جسديهما لن أجد أعضاءً، لا قلبًا ولا معدة ولا كليتين، حتى إنني سألت أبي ذات يوم عن عينيه، أهما زجاجيتان. بالطبع لم يجبني، فعلمت أنهما كذلك.

ابنة من أنا، مَنْ أتى بي إلى هنا، وماذا يريد، كانت أسئلتي الطفولية التي ظللتُ أدور حولها عدة سنوات دون أن أجد إجابة ما. فقط كنت أشيد عالمي في صمت، وكلما شيدتُ ركنًا سكنت فيه دون أن يلحظني أحد،

حتى انسحبتُ تمامًا من العالم الصغير الذي يسكنه البشر لأقيم في عالمي الأكثر رحابة وتسامحًا. لكنه مع ذلك لم يكن مدينة فاضلة، فلعنات العالم الآخر كانت تغزوه وتحتله في بعض الأحيان، بينما تتكاسل جنودي عن الدفاع عنه لنوم مفاجئ أو لهو وسُكر لا يمكن الاستمرار دون تجرعهما. الآن، والآن فقط، أدرك أن عالمي الخاص كنت أشيده بلبنات تهبها لي أمي كل يوم دون أن تدري.

كل ما كانت تحكيه لي لم يكن سوى جسر أعبر من خلاله محملة بمواد البناء لركني الذي خلقته لأستكين فيه. فحين حكتْ لي ذات مرة عن أبي شوال الذي كان يتجول في القرية ويأخذ الطفل الذي يروق له ويحمله داخل شواله إلى مكان مجهول لا يعلمه أحد، أو ربما يبيعه لأثرياء حرمتهم الطبيعة من طفل يخلق الحوار في بيوت أصابها الصمت والضجر، كنتُ أشيِّد أنا حكايتي، فأتخيلني طفلة جميلة بوجه أبيض مستدير وعينين سوداوين واسعتين يعلوهما حاجبان طويلان ونحيفان ينسدل عليهما شعر حريري أسود ومرتدية فستانًا أبيض منفوشًا وجناحين حمراوين، كنت أسير وأتقافز في حديقة خضراء وبجواري أطفال يشبهونني يمتطون أحصنة خشبية أو يتأرجحون في سلام، أو يجمع بعضهم الورود ويلقونها في الهواء. حين ذاك تنشق الأرض فجأة ويخرج منها رجل يرتدي جلبابًا لا لون له من قذارته ويحمل على كتفه شوالًا. ينظر إلينا جميعًا بنظراته السريعة، وفجأة تتوقف عينان متسمرتان في وجهي(أتذكر الآن نظرات خطيبي فأدرك التطابق) فيمد يده بمرونة ويحملني بقوة، دون أن أصرخ، ليلقي بي في شواله ويحكم إغلاقه، فلا أشعر سوى بدبات قدميه السريعة

المتلاحقة، وبعد ساعات ربما أسمعه يتحاور مع أحد، وآخر، وثالث، وفي آخر المطاف يفتح شواله ويخرجني لأجدني أمام رجل جميل يصحبني معه لبيته وفي الطريق يخبرني، بثقة لا أعرف مصدرها، أنه أبي. في البيت تقابلني امرأة قبيحة بابتسامة مرعبة، تخبرني أنها أمي، وخلال ثوان قليلة تخلع فستاني وتغطي جسدي بثياب قديم.

* * *

أقترب من الكومودينو وأسحب ورقة من ورقات أمي، تبدو أحدث من الورقتين السابقتين، أفتحها وأجدها مكتوبة بالقلم الرصاص، أقرأ:

"حبيبتي ماما:

من فترة طويلة ما كتبتلكيش حاجة، هكون صريحة معاكي وأأول لك السبب. البنوتة بئت صورة طبق الأصل منك، ومع إن كل الناس بتئول إنها شبهي بس أنا الوحيدة اللي عارفة إنها شبهك إنتي.. الموضوع دا خوّفني وئت طويل، خللاني أفكر إن روحك لما خرجت من جسمك فضلت متعلئة في مكان معرفهوش لحد ما حلت بعد كدا في بنوتي، علشان كدا بحس دايمًا إن روحها عجوزة. عارفة يا ماما، بصاتها نفس بصاتك، بصات أكبر بكتير من سنها، زي كلامها ماهو أكبر من سنها. كمان بحس إنها مستغربة العالم، كأنها جت في زمن غير زمنها، وعايشة مع ناس مختلفين عنها ومش عارفة تتعوّد عليهم.. ماما، مش دا برضو كان إحساسك؟ يا ترى لسا حاسة إنك غريبة حتى بعد ما بئيتي في زمن مختلف؟

عارفة يا ماما، أنا مجرد جسر بينك وبينها، وسيط بسلم كل حاجة فيكي ليها، لدرجة إنها طلعت زيك في تفسير الأحلام. بس هيه متمردة أوي يا ماما، رغم إنها تبان هادية.

هسيبك يا ماما تستريَّحي شوية، بس ما تنسيش تجيلي في الحلم".

أدخل الحمّام. أجلس الآن عارية على حافة البانيو، وماء الدش الساخن يهاجم جسدي فيمنحني دفئًا، بينما يملأ البخارُ الحمّامَ ويزداد حتى يكوّن طبقة من الغيم تصعب معها رؤية شيء. كما الشبح داخل هذا المنظر، أتأمل البخار الذي يحاول الهروب فيصطدم بالحائط. أبتسم. يحاول مجددًا بإصرار، بعضه متجهًا صوب النافذة الخشبية التي يتخللها زجاج محكم، وبعضه الآخر نحو الباب. كل هذا البخار لن يستطيع الهروب، لكن بعضه سيحقق ذلك عبر الثغرات الضيقة جدًا حد الاختفاء، الموجودة بين حافة الشباك والحائط أو عقب الباب والأرضية. أضع يديّ على رأسي وأفكر أنني إلهة هذه المساحة، أنا من أشعلت السخان ليأتي بماء ساخن، فجاء الماء ببخار. وأنا من صنعت الحوائط، والنافذة والباب وأغلقتهما. يموج البخار الذي صنعته بين الحوائط التي صنعتها، بحثًا عن مخرج، عن حرية، وأنا أشاهد كل ذلك في صمت. تتناثر كتل البخار في كل مكان، بعضها إلى السقف، بعضها إلى العمق، جهة النافذة على يميني أو الباب على يساري. تسود حالة من التخبط، والتوهة. البخار يدخل في لابيرنث أسطوري، وهمي في ذات الوقت. أضحك بقلب إله شرير يرى مخلوقاته التي كانت كتلة واحدة تتفتت بحثًا عن خلاص، دون أن يمد يده ليفتح النافذة. أضع يدي على صنبور الدش لأغلقه، فأتراجع. بيدي أن أمنع

ميلاد بخار جديد، لكن اللعبة تحلو لي. أشاهد تسرّب كتلة بيضاء بانتظام عبر النافذة، وأفكّر أنه من المستحيل أن تعود من جديد بعد أن طارت في عالم أرحب. أقف في البانيو وأغمض عينيّ.

أشعر بلذة انهمار الماء الدافئ على جسدي، وأفكّر أنني بعد أن أنتهي من حمامي يجب أن أغلق الباب جيدًا على البخار، وأن أعود بعد ساعات لأرى كيف سيكون. أجفف جسدي بتأن، وألمس عضوي الذكري المنتصب بينما أنظر لبخار ينتظر دوره في الهرب. بخار في حمّام ونساء في مدينة. أخرج وأفتح الدولاب. أختار البنطلون الكتان الذي اشتريته منذ سنوات و لم ألبسه أبدًا، وألبس معه تي شيرتًا أرتاح فيه رغم أنه رجالي. أقف أمام المرآة وأمشّط شعري القصير عندما تأتيني رغبة ملحة في تدخين سيجارة. أنظر للساعة، الحادية عشرة ونصف وخمس دقائق. كيف حال المدينة الآن، أتساءل.

* * *

أقف في الشرفة بشعر مبلول، وأشعر بالشتاء. فصل يناسبني تمامًا، بغيومه وأمطاره وحتى عواصفه، يبدو جافًا وقاسيًا رغم أننا لا نشعر بالدفء إلا من خلاله ولا نستمتع به إلا كلما اشتد برودةً. يهزني الهواء قليلًا وتتسلل إليّ بهجة غامضة كلما ضرب وجهي ومر لداخلي عبر فتحتيّ أنفي، وكلما داعب شعري القصير جدًا الذي ما عُدتُ أشعر بثقله فوق رأسي. البنطلون الكتان يمنحني حرية أكبر، والتي شيرت، رغم البرد، يهبني الطمأنينة.

مرور السيارات أمامي يوحي لي بفكرة لم تخطر ببالي من قبل، أن مقعد السائق، على عكس ما كنت أظن، هو الأكثر أمانًا. ففي الحوادث البسيطة تقع إصابات أو جروح للجالس بجانبه، وأحيانًا تصل الصدمات للجالسين في المقاعد الخلفية. وفي الحوادث الكبيرة، يودّع الجميع العالم بنظرة حسرة، بينما تصيب السائق خدوش أو كدمات. يجلس السائق في مقعد يواجه الخطر بتحدٍّ، لذلك تصب كل الدعوات بالنجاة في بحره، دون أن يدرك المصلون أنه يدرك تمامًا هذه الأخطار، لذلك ينتبه لها دون أن يغفل لحظة، ويفدي نفسه في الوقت المناسب، ويتخلى، في لحظة الاختيار وبشكل غريزي، عن الأعزّاء الراكبين معه. وعادة، لا مكروه يصيبه إلا إذا غافله النوم أو غلبه السُكر، ورغم ندرة ذلك، فإنه يحدث أحيانًا. غير أن سهوه دومًا يؤدي إلى موت محقق. أفكر في أن الخطر الحقيقي يحيق بالجالس بجانب السائق، هذا الذي يختار مكانًا فسيحًا لقدميه، وراحة أكبر لظهره، وهواءً يداعب وجهه وهو مسترخٍ أو ربما نائم، ليكتشف فجأة، عند أول خطر تتعرض له السيارة، أنه أولُ الضحايا، لا لأن السائق يكرهه بالضرورة، بل لأن السائق تحتم عليه أن يختار، فآثر نفسه.

السيارة التي تمر أمامي الآن، بها جالسون في المقاعد الخلفية، لابد أنهم ينظرون بشوق إلى مقعد السائق، غير أنهم يعلمون جيدًا خطورة المواجهة ورعب الموت؛ وينظرون بحقد للجالس بجانبه، فأحدهم على الأقل له ساقان طويلتان كان يود مدّهما براحة أو عنده فضول ليراقب الطريق في استرخاء. يفكّرون في ذلك مع تنطيطات السيارة عند المطبات الصناعية، وفي الطرق الوعرة، أو كلما أراد السائق أو مَن بجانبه طلب مزيد من

الراحة بفرد كرسيه ليضغط بذلك على الساقين المتكومتين خلفه؛ يفكّرون في ذلك أيضًا، وربما بنفس المقدار، في الطرق المستوية والسير الرائق، وحينها تواتيهم الرغبة برقة كأنها حلم يقظة. غير أن الخطر الحقيقي الأول، الذي سيعصف بالضرورة بحياة الجالس بجانب السائق، سيعيد إليهم البصيرة، فيرون بوضوح مكان الخطر. مع ذلك، سينتقل أحدهم برشاقة ليحتل المقعد المجاور للسائق، وبعد كيلومترات قليلة سينسى الخطر الذي سيتقازم بداخله أمام رغبته في شغل مقعد السائق، رغم أنه على يقين من خطورته التي لا تتفاوض مع الموت. السائق وحده يعلم أنه في مقعد آمن، لا لأنه لا يواجه أخطارًا، بل لأنه متيقن من نبل طبيعته البشرية التي ستدفعه نحو النجاة بنفسه إن تحتم الاختيار.

أفكّر أن كل النسوة اللاتي أراهن الآن أمامي قد قررن، ربما دون وعي تام، أن يجلسن في مقعد السائق.

أقف منتصبة القامة وألاحظ تغيرات في المنظر: اختفتْ علامات الأسى من وجوه النسوة وحلتْ محلها نظرات التحدي؛ سادتْ الحركة في الشارع والميدان، وكأن الحياة تبدأ من جديد بحماسة البدايات. تعاودني الرغبة في التدخين رغم أني لم أدخن من قبل. يُهيأ لي أن امرأة تلوّح لي بإحدى يديها من بعيد، أغمض عينيّ قليلًا وأركز النظر، إنها الفتاة التي كانت تبكي منذ قليل تحت شرفتي، تبدو مبتسمة وتلوّح ببهجة. ألاحظ أن شعرها صار قصيرًا مثلي. أدخل مهرولة إلى الحمّام الذي أحكمتُ غلق بابه. كل البخار تسرّب من بين الثغرات المتاحة كما توقعتُ. ألقيتُ نظرة على الجواد الأسود الذي كان لا يزال ينظر لي بعينين متحديتين، وأشعر

لأول مرة في حياتي أنني أستقبل الطاقة الإيجابية التي يرسلها لي. أنتعل حذائي وأضع حافظة نقودي في جيبي الخلفي وأخرج. أهبط درجات السلم بسرعة وقوة.

أسير في الشارع كطائر يتعلم الطيران حديثًا. أعبر الرصيفَ الآخر وأدخل السوبر ماركت بخفة، أطلب علبة سجائر من بائعة بشعر قصير، تنظر لي مبتسمة، دون أن أعي معنى ابتسامتها، وتشير لي إلى مكان السجائر. بينما أتجه حيث أشارتْ، تدخل امرأة خمسينية بشعر قصير، تمسك بعربة المشتريات بينما تشعل سيجارة وتتجول. أقف أمام أنواع السجائر المختلفة في حيرة، أختار أشيك علبة دون أن أعرف سعرها. أخرج حافظة نقودي وأقترب من الكاشير. فتاة عشرينية جميلة ترتدي قميصًا مبهجًا مفتوح الأزرار ويبرز منه نهداها تنظر لي مرحبة، أسألها عن سعر علبة السجائر. تجيبني بحسم.

عند خروجي من هناك أرى في مواجهتي مجموعة من الصبايا السعيدات يرتدين مثلي أقمصة وبنطلونات، قصرنَ شعورهن جدًا. تبادلنا التحية بهزة رأس وابتسامة، وخرجتُ. قبل أن أعبرَ الرصيفَ مرة أخرى جاءتني فكرة أن أدخن في الشارع وأتجول في الميدان لأفهم ما حدث، فقررتُ الرجوع للسوبر ماركت وشراء ولاعة. هناك، لاحظتُ، وهو ما لم أنتبه له في المرة الأولى، أن المكان الواسع كان ممتلئًا بالنساء، وأن كل النسوة يرتدين ملابس مطابقة لملابسي. مررتُ من أمام بائع الجرائد، في مكانه جلستْ امرأة شابة ربما تماثلني في العمر. اقتربتُ منها وسألتها عنه، ابتسمتْ لي ولم ترد. اشتريتُ جريدتي المفضلة وسرتُ دون أن أعبأ

بصمتها. كل السيارات التي تعبر بجواري تقودها سيدات، وكل الباعة المتجولين كانوا سيدات. قبل أن أقترب من الميدان فتحتُ الجريدة. لم أجد خبرًا عما حدث. ولا صورة لرجل.

في مقاهي الميدان رأيتُ السيدات جالسات يدخنّ الشيشة ويلعبن الدومينو، وصبي المقهى الذي جلستُ فيه فضولًا كان صبية مراهقة تتلاعب بالصينية التي تحمل المشروبات، والأخرى، التي تبدل أحجار الشيشة للزبائن، كانت تحمل النار وبين فخذيها عضو ذكري منتصب، انتبهتُ له فأطلتُ النظر، لمحتني هي وشعرتَ بالخجل والفرحة معًا.

وبينما أتناول الشاي في ذهول، نهضتْ امرأة بضَّة ضخمة النهدين وهي تفرك في عضوها الضخم البارز من البنطلون، واتجهتْ نحو المبولة التي لا باب لها. فتحتْ سوستة البنطلون وهي تنظر خلفها، فاصطدمتْ عيناها بعينيّ. أدارتْ وجهها وأخرجتْ قضيبها، وبعد أن تبوّلتْ مسحته بمنديل أخرجته من جيب القميص، وعادتْ إلى مكانها وهي تقفل السوستة وتنظر لي مبتسمة وتحيِّيني بهزة رأس ودود. لا أبالغ إن قلتُ إن كل النساء الجالسات حولي جميلات بشكل مذهل، رقيقات الملامح والصوت لدرجة لا يمكن معها تصديق سوقية أفعال بعضهن، ولا ارتدائهن ملابس رجال.

خرجتُ من المقهى مسرعة، يراودني سؤال كفكرة متسلطة عن الرجال، أين ذهبوا. أسير بشارع ضيق جدًا أقرب للحارة يؤدي بي إلى السوق. في بدايته أرى أحدًا يتبول على جدار. عندما أقترب أسمعه يتأوّه

ويرتجف، أقترب منه لأرى سائلًا أبيض متماسكًا. ما إن ينتهي حتى ينظر بجانبه ليجدني أنظر لعضوه الذكري. يداريه بسرعة ويدخله بنطلونه. أنظر إلى وجهه لأجدها فتاة مراهقة ربما لم تبلغ الخامسة عشر، جميلة جدًا، ممشوقة القوام، بنهدين مستديرين وصغيرين. أركض وأركض وأركض، شبه عمياء. متعبة جدًا، أتوقف.

أجدني قبل نهاية الشارع. أستند إلى حائط بيت وأنا ألهث. أسمع صوت آهات وتأوُّهات. ألمح على يميني نافذة بمستوى نظري. يدفعني الفضول لأقترب منها وأطل داخل البيت. أتسمر في مكاني وأنا أرى وجهًا ذكوريًا خشنًا في وضع الكلب ومن خلفه وجهًا أنثويًا رقيقًا يركبه، وبعد قليل تقذف فيه المرأة سائلها وهي ترتجف وتمسح قضيبها بمؤخرته. وبينما تجفف عضوها بفوطة صغيرة، تلمحني فتصرخ. أركض بسرعة لم أعرفها من قبل لأجد نفسي في منتصف السوق. يمر بجواري رجال بشعر طويل (لا أعرف أهو شعر حقيقي أم مستعار) بلا شوارب ولا لحى، لكن ذقونهم خضراء من أثر الحلاقة. يرتدون جلاليب مطرزة ويسيرون بدلال ويفاصلون مع بائعين يشبهونهم، ينادون على بضاعتهم المختلفة بصوت رجولي مخنث. أقترب من بائع خضار شاب، يظنني جئت لأشتري فيبتسم لي ويخبرني بكل الأسعار. أنتبه لشفتيه الملونتين بالأحمر، وللحلق المدلي من أذنيه. لم أستطع مقاومة فكرة مجنونة ظلتْ تجول في رأسي بينما يتكلم ويتكلم دون توقف، هكذا دنوتُ منه أكثر ورفعتُ جلبابه لأعلى بحركة مفاجئة. وقبل أن أعرف هل له عضو ذكري أم لا، جاءتني ضربة على رأسي أردتني أرضًا. لم أشعر بشيء سوى ضربات وركلات وسباب، وأحد

صاح في النهاية، كفاية، كفاية، دي ماتت. حينها كنتُ أسبح في عالم فوق الأرضي، تمر بخيالي صور حياتي جميعها بشكل غير منتظم، أراني طفلة وشابة ومراهقة، وحدي أو بصحبة أمي أو بصحبة أبي، أجري في الشارع كما المجنونة هربًا من أكلة لحوم البشرِ الذين يطاردونني، وأسمع صوت قطار يأتي من بعيد دون أن أراه فيشكّل بداخلي معنى حقيقيًا للخوف. كنت أشعر بكل ما يدور حولي دون أن أستطيع أن أتحرك.

عندما فتحتُ عينيّ بتثاقل رأيت كل شيء أبيض، الملاءة وكيس المخدة والغطاء والجدران. دخلتْ أمي لتكسر البياض بردائها الأسود، وجلستْ بجانبي وظلت تردد في أذني بلا توقف كلمة واحدة: مجنونة. ترددها بإلحاح كأنها تميمة تطرد بها الأرواح الشريرة التي تسكنني. أغمضتُ عينيّ من جديد وسألتُ عن الساعة منهكة. جاءتني الإجابة من صوت أنثوي غريب، الساعة الواحدة والنصف. انتبهتُ فجأة كمن بُعِثَ للحياة، نزعتُ عني غطائي وهرولتُ كالمجنونة وأنا أردد، النهارده فرحي، لازم أروح الكوافير. فجأة انتبهتُ أنني أهبط درجات سلم عمارتي وفي طريقي إلى الشارع، رغم أنني أهرول في الأساس لأهرب من المستشفى لأعود لبيتي لأعد نفسي للذهاب للكوافير.

8

أجلس في مكاني، على درجة سلم. أضع يديّ خلف رأسي، الذي أضعه بين ركبتيّ. أشعر أن العالم كله يتآمر عليّ ليضعني على شريط قطار الجنون. أرفع رأسي. أرجُه. هل كان ما حدث حقيقة أم حلمًا. أدخل يدي في جيبي، أجد علبة السجائر والولاعة. أضع يدي على مكان الضربة الأولى التي تلقيتها من البائع، أجد قطنة ولزقة. أجري نحو شقتي وأدخل غرفة النوم. أقف أمام مرآة التسريحة. أرى تورُّمًا فوق عيني اليمنى وأشعر بآلام في جميع أنحاء جسدي.

لا أفهم شيئًا، لا أفهم شيئًا، أرددها بهستيريا، وبينما أتقلب وأنا أبكي، أرى تليفوني المحمول مضاءً. يظهر على الشاشة اسم "حبيبي"، فأردد بصوت عالٍ شبه مكسور، هو من اسمَّى نفسه حبيبي. بعدها تأتيني رسالة

منه، نتقابل في الكوافير الساعة ثمانية. كتبتُ له رسالة أسأله فيها، إنت لسه عندك عضو ذكري. وقبل أن أرسلها مسحتها وكتبتُ أخرى، أنا طلع لي عضو ذكري على فكرة. لكنني مسحتها أيضًا.

خلعتُ كل ملابسي وداعبتُ عضوي حتى انتصب، وبدأت في تخيل رجل مر من هنا وكان يريد أن يتزوجني لأنه أحبني. مارستُ معه في عالمي الخاص كل ما كنتُ أتمناه، حتى ارتجفتُ وامتلأتْ يدي بسائلي الأبيض. دخلتُ الحمّام وغسلتُ يديّ وعضوي. نظرتُ في الأرضية ورأيتها مازالت مبتلة، من الدش الذي أخذته قبل نزولي؟

خطر ببالي أن ما حدث ظاهرة يجب على الإعلام أن يسلط الضوء عليها، وتوقعتُ أن التليفزيون الآن يناقش الظاهرة ويبحث عن تفسيرات وعلاج لها. مدينة بحجم مدينتي لابد أن تنال اهتمام التليفزيون. خرجتُ إلى الصالة وأشعلت الصندوق الأحمق. جلستُ على كنبة الأنتريه وظللتُ أقلب في كل القنوات الأرضية والفضائية. لا شيء. لا خبر. مسلسلات وأفلام وبرامج تافهة بأصوات عالية. أطفأتُ التليفزيون وعُدتُ لغرفتي، ارتديت بيجامتي وسحبت ورقة من ورقات أمي وقرأت:

" حبيبتي ماما:

البنوتة حلمت النهارده إن ليها ضرس وئع، وفسرت الحلم إن في حد هيموت. أنا عارفة إنه أنا، من حوالي شهر وأنا حاسة إن ورئتي على شجرة الحياة اصفرّت وأرّبت توئع. ومن حوالي ربع ساعة حسيت بحد بيلف في البيت لابس أبيض فأبيض وجالي في المنام كذا مرة. وأنا بكتب لك دلوئتي في حد بيهمس في وداني إني هموت يوم السبت الساعة ثمانية بليل، يعني

بعد تلات تيام. أنا مش خايفة من الموت، أنا عاوزة بس روحي تفضل في البيت دا علشان تحرس بنتي.

حبيبتي ماما:

ليه ما أولتيليش إنك ماعرفتيش توصلي لحرامي الدهب وإن البيت اللي أنا شفته في المندل كان فعلًا مهجور؟ مش مهم، لما أروح لك نبئا نتكلم براحتنا.

بحبك أوي"

* * *

خرجتُ إلى الشرفة. الجو مضبب جدًا، بحيث لا يمكن رؤية شيء. والسحب محمّلة بأمطار بدأ ملاك المطر في إطلاق سراحها. قطرات الماء الخفيفة التي تزداد مع مرور الدقائق تضرب وجهي وتبلل شعري القصير. أفتح أزرار بيجامتي لأواجه العالم بصدر عارٍ لم يره رجل، و لم تلمسه يد. يغرقني الماء فأذوب فيه ككائن لم يكن يومًا، وأتذكر أن كل ما كنتُ أتمناه في طفولتي أن أتوه ولو لمرة واحدة، بعدها أعود أو لا أعود إلي البيت. أن أسير في طرقات لا أعرفها، لأصل إلى قبلة لم يحددها لي أحد سوى خطواتي. أن أتعثر، أن أقع، أن أنهض بمفردي. أن تكون لي ذكرى واحدة خاصة بي تسلّيني في أوقات وحدتي ومعها أشعر أنني عشتُ ولو لحظة في عمري كله. كنتُ، وما زلتُ، أود أن أتوه، أن أستكشف، أن أكتشف كل العوالم وأن أختار بنفسي في النهاية العالم الذي يلائمني.

أقبض على نهديّ بكلتا يديّ، أضمهما، أداعب حلمتيّ. أنظر للسماء وأحلق فيها فوق مدينتي، وأتخيلني كتلة بخار تتسرّب من ثغرات نافذة حمّام صنعته يد خفية وأحكمتْ إغلاقه. أمتطي جوادي الأسود وأسبح في سحب صنعتها بخيالي دون أن أعلم إلى أين تسوقني، ولا أود أن أعلم. في طريقي إلى هناك أودّع بيتًا قديمًا لا يُفتَح بابه إلا مرتين في اليوم ونوافذه مغلقة للأبد؛ أودّع بداخله أمًّا رأتني طول عمرها دميمة، فعاقبتني على دمامتي التي أورثتني إياها، وأبًا سمعتُ عنه أكثر مما استمعت له، وعرفتُ حكاياته الكثيرة من لسان امرأة ماتت قبل أن تتخذ قرارًا واحدًا في حياتها؛ أودّع صفًا طويلًا من فتيات كنّ صديقات، يقفن بجانب أزواجهن، ويشرن بأيديهن إليّ، ساخرات مني، مرددات بصوت هامس: وداعًا أيتها الطرف الثالث. يطاردني وجه رجل غليظ بشارب كث وعينين جاحظتين، يحاول أن يلحق بي بيد ممتدة على آخرها وأصابعها متفرقة.

أفيق على ضربات على وجهي، فأفتح عينيّ وأجدني محاطة بنسوة يحضنني ويغسلن وجهي بماء باردٍ ويشممني عطرًا رجاليًا. أنظر إليهن بذهول وأنا أشعر بجسدي مفككا. ألاحظ تلطخ ملابسي بالطين وأنظر لأعلى فأرى شرفتي. أسألهن ماذا حدث، تجبني إحداهن بشفقة، شكلك دُختي وإنتي واقفة في البلكونة. تحملني امرأتان منهن إلى شقتي وتأتي الباقيات خلفهما. نجد باب الشقة مفتوحًا. لا أتذكر ما حدث، ولا أتذكر متي تركته مفتوحًا. يتركنني على كنبة الأنتريه، وتسألني أصغرهن سنًا إن كنت أريد شيئًا، إن كنتُ أشعر بتحسن. أجيب بهزة رأس وبهمس، أنا كويِّسة، هبقى كويسة. يودعنني في تردد، ويغلقن الباب. أتذكر سؤالًا

يجب أن أسأله لهن، فأنهض من مكاني وأتحامل على ساقيّ. أفتح الباب وأنادي، بقول لكو إيه لو سمحتو، فيأتيني صوت واحد من بعيد، نعم. هو إنتوا طلع لكو عضو ذكري، أسأل بأعلى صوتي.

أسمع صوت ضحكة عالية من بعيد، آه طلع لنا، ادخلي استريّحي بقا. أكرر سؤالي مجددًا وأطلب أن تتحدثَ بجدية. لا تأتيني أية إجابة، فأدخل وأغلق الباب وأتجه لغرفة نومي. أفرد جسدي المنهك على سريري، وأفكر فيما يحدث لي. أسمع تك تاك الساعة، وأنظر إلى الحائط، الساعة الخامسة.

* * *

أشعر بالجوع. ألعق شفتي السفلى بلساني وأشعر بجفافها ومرارتها. أضع يدي على بطني وأتحسسها. أنا خاوية من الداخل، أقولها بصوت مسموع. ترن في أذني كلمة "خاوية" وأتخيل معها صورة إناء مقعر. أنا إناء له حواف وعمق، لكنه خاوٍ تمامًا. أنهض بكسل بجسد منهك ومفكوك، وأفتح الثلاجة، التي أجدها شبه خالية. أستخرج منها بقايا طعام أعددته منذ يومين وأدخل به المطبخ. أعيد تسخينه بينما أفكر في رغيف خبز مثلج (مثلي) أود أن يطرى سريعًا لأسخّنه هو أيضًا. أتناول طعامي بشهية لم أعرفها من قبل، كأنني قادمة من مجاعة فورًا، وأُقصِي عن ذهني أية فكرة قد تعكر صفوي اللحظي. ينظر لي الجواد الأسود بعينين حادتين، كما لو أنه قرأ فكرة ستراودني بعد قليل. عند عودتي للمطبخ لأضع الطبقين في حوض الغسيل، تنظر لي أمي بطرف عينها وتأمرني أن أغسلهما، أنظر

لها بلا مبالاة وأخرج. تشير الساعة للخامسة والنصف فأسرع في ارتداء ملابسي حتى لا أتأخر على الكوافيرة. أضغط على رقم خطيبي ليمر ببيتي ويحمل حقائبي وأشيائي إلى بيته، بيتي الجديد. لا يرد. محتاجاك، تقول رسالتي التي لا يهتم بها. أحمل معي فستاني وأنزل درجات السلم حزينة، أنا وحيدة في هذه الليلة. أنا دائمًا وحيدة.

في الشارع، لاحظتُ أن الحياة أكثر نظامًا، أكثر بهجة. لا أحد سوى سيدات وفتيات يسرن بعلامات السرور على وجوههن. يتصافحن، يتنزهن، يضحكن، يطلقن شعورهن، يتقدمن في طريق يعرفنه جيدًا، بينما أسير أنا في طريق لا أعرف منتهاه وعيناي صوب طريق آخر حتمًا سأسير فيه. أقترب من الكوافير وأفتح بابه الزجاجي بهدوء. بالداخل، أجد رجالًا يرتدون ملابس نسائية، بعضهم يغطي وجهه بالمساحيق، وبعض آخر بالماسكات. منهم من يجلس على كرسي مسترخيًا بينما يقوم صبي بوضع مانيكير لهم، بعض آخر يعملون لهم باديكيرًا. شعرهم الطويل (لا أعرف أهو حقيقي أم مستعار) يتدلى حتى بداية ظهورهم. أقف في مكاني وربما أرجع خطوة إلى الخلف دون أن أنتبه. أسأل عن كوافيرتي فيجيبني أحدهم، رجل طويل يقف خلف كرسي ويفرك وجه رجل آخر، إنها زوجته، وأنها الآن في عمل آخر. والكوافير؟ سألته. أنا اللي شغال فيه، أجابني مقتضبًا. تسمرتُ من الذهول دون أن أجد ردًا، وظللتُ أتجول في وجوههم في صمت، فلاحظتُ حينها تعاسة ما في ملامحهم، وانكسارًا في عيونهم (يشبه الانكسار الذي رأيته دومًا في عيون كل النساء اللاتي مررن بحياتي). يجب أن أقرر هل سأجلس أم سأرحل في ثوانٍ. طيب

أنا عاوزة مكياج عروسة، قلتُ في النهاية. نظر لي متعجبًا، رافعًا إحدى حاجبيه المزججين، وقال أخيرًا: تحت أمرك، اتفضلي.

جلستُ وأنا ألتفتُ حولي كطفلة تائهة تبحث عمن تعرفه ليعيدها لبيت أبيها. وعندما دخل رجل مصبوغ الشعر بلون بنفسيجي، كدتُ أنتفض من الكرسي. ضغط الكوافير على رأسي برقة ليعيدني إلى مكاني، وتحسس شعري القصير بابتسامة ليخفف من حدته التي أثارتْ غضبي. أمسكتُ بتليفوني المحمول وهاتفتُ خطيبي. لم يرد. ألححتُ عدة مرات حتى استجاب في النهاية. إنتي فين؟ سألني بصوت لم أتعرف عليه في البداية. في الكوافير، أجبته. إحنا هنتجوز النهارده؟ سألته مرتابة. طبعًا، أجاب بحسم. طب هو إنت لسا عندك عضو ذكري؟ لم يرد. طب إنت عارف إن طلعلي عضو ذكري؟ جاءني صوته مبتسمًا، طب مبروك، ألف ألف مبروك، عقبال ما يطلع لك بيضتين كمان. قالها بسوقية لم أحتملها فأغلقتُ الخط وعُدتُ لصمتي.

شردتُ قليلًا. بعدها نظرتُ في المرآة فوجدتني بفستاني الأبيض مفتوح الصدر، وشعري القصير، ووجهي المزين كاملًا، بحاجبين مزججين، وشفتين ملونتين بلون بمبي خفيف لامع، وخدين حمراوين، وعينين واسعتين ومرسومتين بخطين عريضين أسودين، ورموش سوداء طويلة. كنتُ جميلة جدًا على عكس ما كنتُ أعرف عن نفسي، وعلى عكس المرة التي فيها سخر مني الجميع وأولهم أمي. رفعتُ رأسي لساعة الحائط، كانت تشير للسابعة والنصف. ما عندكش تابلوه فيه حصان أسود؟ سألتُ الكوافير. وقبل أن يجيبني كنت قد اتخذتُ قراري.

9

في الشارع أركض، وأركض، وأركض. لا أرى أمامي شيئًا لكنني أسمع أصواتًا تأتيني من كل مكان، أميز منها صوت أبي، يأتيني متقطعًا، كأنه يخرج من غابة خُلقتْ في بدايات الكون وأهملتْ للأبد. ألتفتُ حولي فلا أستطيع، فدبَّات أقدام قاسية تطاردني.

أشعر أن الأرض تنشق من تحتي لتبتلعني، كأنني أسير فوق رمال متحركة، وبيتي يبتعد كلما اقتربتُ منه. تمر أمامي صور أكلة لحوم البشر، وأتخيل أمي وخطيبي وصديقاتي بينهم. أمي تحكي لي حكاياتها بينما يهرب الدم من فمها وتمسحه بيدها؛ خطيبي يلاحقني في كل مكان، يمد نحوي يدًا ملوثة بدمائي، ويمد يدًا أخرى نحو عضوي الأنثوي ليفض بكارتي، فيجد مكانه عضوًا ذكريًا فيغضب ويود قطعه؛ صديقاتي ينادينني

فأنظر إليهن من الشرفة، وأنزل درجات السلم جريًا، وأسير بجوارهن بينما ينظرن لي بعيون جاحظة، وأقابل بصحبتهن عشاقًا مرضى، حديثي الخروج من مستشفى المجانين، يمسكون أيادي صديقاتي ويمضغون أصابعهن، بينما صديقاتي يضحكن ويتلذذن بالألم، وأنا بجوارهم أجلس في انتظار أن يقترب الجرسون ليقضم إصبعي، فأسمع أحدهم يصفني بأنني أشبه الخصيتين.

يتحول العالم أمامي إلى لون أحمر، وتمطر السماء الحمراء قطرات حمراء، فيظهر لي تابلوه به جواد أسود، يمنحني طاقة أعبر من خلالها لعالم شيدته في صمتي، فأجدني أمام باب بيتي. أدخل مسرعة لغرفة النوم. أخلع فستاني الذي صار أحمر، وأضعه في البانيو وأفتح الصنبور على آخره. أجلس على كرسي الحمّام القصير وألحظ الماء وهو يُنظّف ويتلوث في آن. أنهض وأمسك الدش بيدي خارج البانيو. أغسل جسدي من كل البقع الحمراء التي تركتْها فوق جسدي مصائر لم أخترها، وأسحب الفستان وأغسله بيدي، بقعة بقعة، تحت ماء صنبور الحوض المنهمر.

أخرج من الحمّام امرأة أخرى، ظللتُ أبحث عنها طيلة حياتي حتى وجدتها. أقف أمام مرآة التسريحة عارية، أراني جميلة، جميلة جدًا. أنا أجمل امرأة في العالم حتى لو لم يصدقني أحد. تطل عليّ أمي بنظرة ساخرة، أبادل سخريتها بسخرية أشد وأخبرها أنني لا أصدق حكاية ليلة السابع والعشرين من رمضان. تمر بجواري صديقاتي، يضحكن ويدارين أفواههن بأيديهن، فألتفتُ إليهن بقوة وأردد إنني لستُ قبيحة كما تظنن، أنا فقط داريتُ جمالي من أجلكن.

أدخل إلى السرير وأحمل معي كل سعادات العالم وسكينته. أغلق تليفوني المحمول وأنظر للساعة، تشير للثامنة. أغطي جسدي بلحاف يهبني دفئًا لم أعرفه من قبل، وأغوص في أحلامي.

رأيتُ في المنام أن لي عضوًا ذكريًا، فانتفضتُ من مكاني أردد عبارات لا يهم أحد غيري معناها. سمعتُ جرس الباب يدق بإلحاح. لابد أنه خطيبي. ارتديتُ ملابسي ووقفتُ في منتصف الغرفة. على يميني باب يؤدي إلي الصالون والسجاد والنجف وزوج ينتظر على الباب، وعلى يساري باب يؤدي إلى الشارع، إلى عالم ربما أتوه فيه، لكنني حتمًا سأجد نفسي هناك.

ابتسمتُ ابتسامة امرأة أمسكتْ أخيرًا بزمام حياتها، واتجهتُ للشرفة. عندما ارتطمتُ بالأرض، لم أشعر بكسور جسدي بقدر ما كنتُ أتذوق لحظة السعادة التي منحها لي الطيران. ابتسمتُ مرة أخرى عندما تذكرتُ البخار وهو يهرب من ثغرات نافذة الحمّام. أبي جاءني من نهاية الكون مهرولًا فمددتُ له يدي. وجوادي الأسود غيّر نظرته لي وابتسم أخيرًا من مكانه بغرفة نومي، فأرسلتُ له قُبلة.

FIN

المؤلف في سـطور

أحمد عبد اللطيف

- روائي ومترجم وصحفي مصري مواليد 1978.
- صدرت روايته الأولى "صانع المفاتيح" عام 2010 عن دار العين.
- ترجم عن اللغة الإسبانية 12 عملًا أدبيًا ما بين الرواية والقصة والمسرح والسيرة. من بينها أربع روايات للبرتغالي جوزيه ساراماجو، بالإضافة لسيرته الذاتية، وهي "البصيرة"، "ثورة الأرض"، "مسيرة الفيل"، "كتاب الرسم والخط" و"الذكريات الصغيرة". وصدر له أخيرًا خطب ماركيز بعنوان "ما جئت لإلقاء خطبة". وترجم لخوان مياس عملين "لاورا وخوليو" و"كانت هذه هي العزلة".

البريد الإلكتروني:

ahmedxlatif@yahoo.com

عالم المندل

في روايته الثانية، يقف أحمد عبد اللطيف على حافة عوالم متشابكة، ما بين الفانتازيا والواقعية والحلم، مشيدًا عالمًا خاصًا ممتلئًا بأشخاص وخيالات وأشباح وأصوات وهمهمات وتخيّل حكايات وأحداث وبناء تصورات وتفسيرات، دون الوصول أبدًا لليقين، كأنه عالم المندل. تبدو الرواية في مجملها مثل لعبة سردية، تدور في 25 ساعة، وتبدأ قبل زفاف بطلتها بليلة واحدة، فتستعيد بذلك حياتها كاملة، وتتخذ، لأول مرة في حياتها، قرارًا تثور به على موروثاتها الاجتماعية. أثناء ذلك، تطرح الرواية أسئلة عميقة حول المرأة، الجمال، الوجود، الأماكن، وترصد البعد النفسي للبطلة، مستندة إلى الموروث الذي تتجادل معه، وتهدمه.

غير أن السؤال الأكثر أهمية الذي تطرحه الرواية، والذي يعتبر فكرة العمل التي تلتف حولها الأفكار الأخرى: ماذا لو صارت نساء العالم بأعضاء ذكرية؟ هنا، وبهذه الفكرة الغريبة والجريئة، يختزل المؤلف التراث الجمعي النسائي في بطلته، من خلال حبكة روائية مضفرة من قصص وحكايات أنثوية تطعم العمل وتثريه، طارحًا أسئلة دون تقديم إجابات معدة سلفًا، في إطار سردي سريع الإيقاع، ولغة ناعمة ومتمردة في آن واحد. "عالم المندل" رواية تؤكد على الإطار الأدبي للمؤلف، والذي بدأه برواية "صانع المفاتيح" كما تؤكد على التيار الفانتازي الذي ينطلق منه، ليجعل من الفانتازيا أكذوبة قابلة للتصديق، بل ومنطقة أكثر قربًا لمشاهدة العالم.

الغلاف: بسمة صلاح

دار العين للنشر
Elain Publishing